حين تنطفئ النجوم

رواية

عنوان الكتاب: حين تنطفئ النجوم
الموضوع: رواية
التأليف: نهى عبد الفتاح
مراجعة لغوية: كريم أبو النور
إخراج فني: محمد الزهيري
تصميم الغلاف: داليا قريش
رقم الإيداع: ٢٠٢٠/١٣٩٧٦
الترقيم الدولي: 978-977-6639-82-9
الناشر: دار تويتة للنشر والتوزيع

www.facebook.com/Tweetforpublish

tweetpublishing2017@gmail.com

٧ش محمد أبوالعطا - محطة العريش - فيصل - الجيزة
رئيس مجلس الإدارة: م/ أحمد عبد العزيز
المدير العام: أ/ رشا العمري

٠١٠١٧٧٩٩٧٩٩
٠١٢٢٥٧٦٢٠٦٦

تويتة
Tweeta
للنشر و التوزيع

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة غرّد_للعالم

حين تنطفئ النجوم

رواية

نهى عبد الفتاح

دار تويتة للنشر والتوزيع

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٧
الفصل الأول: ما قبل الرحيل	٩
الفصل الثاني: لحظات قاضية	١٧
الفصل الثالث: رحيل	٢٧
الفصل الرابع: مرت ولكن تركت أثرًا	٣١
الفصل الخامس: مختلف	٣٣
الفصل السادس: سعادة ما وراء اللقاء	٤٥
الفصل السابع: لقاء متجدد	٥١
الفصل الثامن: بدأت تبتسم	٥٩
الفصل التاسع: غياب	٦٥
الفصل العاشر: النهاية	٦٩

الإهداء

إلى من شاركتني رَحِم أمي

إلى الدانية لقلبي دومًا وأبدًا

إلى تفاصيل حياتي

إليكِ أنتِ .....

دمتِ برفقتي ...

أميرة !

الفصل الأول
ما قبل الرحيل

اسمي "نَجمة علي أحمد"
ماذا بعثت نجمة في نفسك عندما قرأتها؟
هل السماء أم الضياء أم ذكرتك بالقمر؟، كلهم ما كان يلجأ إليه أبي في لحظات صمته الطويلة، نجم يضيء في عنان السماء ربما يراه البعض يحلق فيها يساند القمر في جميع أوقاته: فى اكتماله فيكون بدرًا ولا يتركه في ضعفهِ واختفائه محاقًا والأهم من ذلك أنه لا يبرح السماء.
لجأت إلى الكتابة بعد فقدان أهم دافع إلى الحياة فلم يعد هناك شغف للمزيد وإرضاءً لرغبة والدي العزيز، وحبه الغريزي للكتب وللكتابة.
أنا أكتب ...
منذ عام مضى ..

إنه الشتاء الذي يذكرنا دومًا بما فقدنا، إنه دومًا يهتم بالماضي ..
نفس أمسيات الشتاء الباردة ونفس عواصف الهواء والأمطار الغاضبة اللواتي مزجتُها اليوم بدموعي التي تساقطت رُغما عني، نفس كوب "النسكافيه" والحليب الدفيء، نفس الموسيقى التي تعلو نغماتها في أذني .. نفس الصوت .. الصوت الساحر لمطربته المفضله "فيروز" وربما نفس المقطع ..
«بتذكر شو كنت تقلّي
مهما يصير
انتظريني وضلك صلي
الله كبير
من يومها شو عاد صار
كل إللي صار وبعدو بيصير
الله كبير .....»
ربما في سالف الوقت كانت تعجبني ألحانها وصوتها؛ ولكن الآن ما يعجبني خطابها

ولكن هذه المرة الانتظار لا يعني لي شيئًا فقد رحلت ....

لم يختلف الوضع كثيرًا على المستوى الظاهري، ولكن ما غيَّره الزمن خِفيةً في قلوبنا لايمكن إنكاره؛ نفس الأنفاس ما زالت تتردد ولكن بدون صحبة ذلك القلب الدفيء والنفس الطيبة؛ فلا معنى للحياة ولا مراد إلى والدي القدير الساكن في قلبي، والقريب إلى روحي ومالك حبي، وإكسير سعادتي وجنتي على الأرض دائما وأبدًا؛ أحبك.

الأستاذ "علي أحمد"..

مدرس اللغة العربية ومؤلف كتبٍ لا يعلمها أحد سواى وهو صاحب البسمة التي تنبعث من وراء الغبار، المنطلقة من عمق الألم وإن للحزن عمقًا لا يدركه إلا المبتسم المتألم صاحب الأمل الوضاء، والنفس الساعية والقلب الدفيء، فمنذ أن فارقته والدتي وهو يبتسم ولولا يقيني التام بحبه لها، لقلت إنه سعيد بفراقها، لقد شهدت لحظة الفراق في صغري ولكني لم أعيها حقًا؛ فقد كانت حبيبته وسر بقائه في الحياة، كانت أميرته وسر سعادته، ووالدتي الحبيبة والجميلة دومًا؛ حتى وإن لم أكن أتذكر ملامحها أو ضحكاتها الحية تجاهي ولكن قلبي لازال يذكرها...

يذكر قُبلتها ... يذكر دقات قلبها بالقرب من قلبي وصداها، لا زال يعشقها .... ويتمنى لحظة بقربها في جنة الخلد، لقد تركتنا جميعًا وحدنا ورحلت ....

لقد عايش والدي لحظات قاسية؛ لكنه قابلها بجرأة وشجاعة لافتة، لقد كان دومًا بطلي وبطل إخوتي وأكيد كان بطل لأمي ... ولا يزال ...

وفي يوم كعادة تلك الأيام الرتيبة التي نقابلها والتي قد يصفها البعض بالمُملة ولكن بالتأكيد إنها الأفضل من تلك الأيام التي تحمل إثارة؛ ولكنها في نفس الوقت إثارة مؤلمة .. مرهقة .. مجحفة.

انطلق أبي في صباح ذلك اليوم إلى عمله، وبينما كانت عقارب الساعة تقترب من الثانية عشرة وبضع دقائق رن الهاتف ...

كان المتصل أبي، لم يكن من عادته أن يحدثني في أوقات عمله:

- السلام عليكم.

لم يكن الصوت القادم من الجهة الأخرى للهاتف هو صوت والدي ... أظهرت علامات التعجب، أبعدت الهاتف مرة أخرى لأتأكد من أن شاشة الهاتف تحمل اسم والدي ورقمه

ثم أردفت قائلة:

- من المُتصل؟!!

- أنا الممرض "هشام" لقد وصل والدكِ منذ قليل إلى المستشفى، كان يعاني من ألم في بطنه وتم تشخيصه باشتباه في التهاب الزائدة، وتم تحويله إلى قسم الأشعة و .....

قاطعته بحده قائلة: أين هو الآن؟؟ هل هو بخير؟؟

في أي مستشفى هو؟؟

- في مستشفى النيل.

أغلقت الخط أو ربما هو من أغلق، لحسن حظي كنت أستعد للخروج لشراء بعض المتطلبات، لم أكن أعرف مكان المستشفى فلم أذهب إليها من قبل، فأوقفت سيارة أجرة وأخبرت السائق بالمكان وفي خلال عشرين دقيقة كنت أمام صرح ضخم يحمل لافتة كبيرة تحمل اسم المستشفى ولكنها لم تسلم من الغبار الذي غطاها بالكامل وكأنها مكتوبة بأحرف رمادية بارزة محاطة بسور عالٍ؛ دلفت من البوابة الأولى التي لم يستوقفني عندها أحد إلى باب قد تجمهر عليه الكثير من مرضى ومرافقيهم وأطباء وعاملين وغيرهم، وبحركة ثابتة قد توجهت إلى مكتب الاستقبال ذكرت اسم والدي؛ فأشار الجالس على المكتب بيديه بإتجاه ممر طويل؛ قائلًا: غرفة ٥٣ قبل أن يرفع سماعة التليفون ليستقبل اتصالًا جديدًا.

في ذلك الممر الطويل الذي احتوى على العديد من الغرف المتراصة -يمنة ويسرة- كنت أبحث عن هذا الرقم الذي يختفى خلف جدرانه أبي ... في نهاية الممرتقريبًا كانت غرفته ما قبل الأخيرة، فتحت الباب وكان هنالك سرير قد تمدد عليه شخص قد أخفى وجهه ذلك الطبيب الذي كان يفحصه، لولا صرير الباب المزعج لما انتبه لدخولي.

التفت إليَّ مسرعًا بعد أن تنحى قليلًا ليظهر وجه أبي مُغمضًا عينيهِ على عكسِ عادته فقد كان يستفيق بمجرد دخولي إلى غرفته.

تحدث أحد الواقفين بنبرة حازمة وقد ارتدى وجهه قناع اللامبالاة:

- هل أنتِ مُرافقة المريض؟

- نعم .. أنا ابنته ..

- ماذا أصابه؟ لماذا هو نائم؟
ولم أستطع أن أخفي معالم القلق التي طلت كل قسمات وجهي.
تحدث آخر كان يقف إلى جواره قاطعًا حديثه وموفرًا جهده أوعبء شرحه:
- كان يستعد لإجراء تصوير بالسونار؛ ولكن فقد وعيه، وعند الفحص تبين أنه مُصاب بجلطةٍ في المخ.
- جلطة بالمخ!!!
- ولكن قد أخبرني الممرض أنها اشتباه بالزائدة.
- لا .. لقد كنا نرجح ذلك؛ ولكن الأعراض أظهرت خلاف ذلك، ماذا عن الأيام الماضية؟ هل كان يعاني أي أعراض؟
- منذ يومين كان يشعر بالتعب ولكنه تعاطى بعض المسكنات وكان بخير في اليوم التالي ... كيف حالته الآن؟ متى يستيقظ؟
- لانعرف الآن متى يستيقظ ولكن حالته حرجة ...
ننتظر أن يخلو سرير فى جناح العناية المشددة لننقله له.
- حالته حرجة ..!!
لم أسمع بعدها أي صوت وكأنما أُصبت بالصمم ... ألا تكفي تلك الكلمة بذلك؟؟
لا والله .. بل إنها كانت قاضية بالنسبة لي.
تناقشا معًا قبل أن يرفع صوته موجهًا إياه لطبيب كان يقف في زاوية يراقب فحسب
- راقب حالته جيدًا وأخبرني بالتطورات.
أومأ برأسه.
ثم تحرك نحوي قائلا: إنه يمكنكِ رؤيته لدقيقتين فقط.
اقتربت منه وجلست على الكرسي المجاور لسريره تلمست ساعده بأناملي فشعرت بيديه تقبضان على يدي
- أبي .. أبي ..
لم أستطع أن أنطق بسوى تلك الكلمات .. وكأنما قد انعقد لساني، ولم أطلق

إلا دموعي فهي تحكي الكثير... لم استطع أن ألجم دموعي التي تساقطت دون إنذار

قطع سيل شجوني ذلك الممرض الذي وقف أمامي:

- أنا آسف ولكن عليكِ الخروج الآن، لايمكنني تركككِ أكثر من ذلك.

استجبت بهدوء إلى كلامه وخرجت من الغرفة، بحثت عن مقعد فارغ أستطيع الانتظار عليه حتى يفيق والدي؛ ولكن مرت إلى الآن ساعتان أو ربما ثلاث، لم أفعل أي شيء فيهما

سوى الدعاء والبكاء.

كانت الساعة تقترب من الرابعة والنصف ... لم أنتبه إلى الوقت

يا إلهي رنا وأحمد ..!! لقد نسيتهما ..

تحسست جيبي بحثًا عن الهاتف فلم أجده، بحثت في حقيبتي لم أجده أيضا، لقد نسيته في المنزل لم أستطع أن أفكر فيماعليّ فعله، قطع تفكيري وتركيزي باب الغرفة ٥٣ الذي انفتح على مصراعيه، وخرج منه والدي راقدًا على سريره ما زال مغمضًا عينيه ...

قد التهم وجهه قناع الأكسجين فلم تظهر إلا عظمتا فكيهِ.

كان أحدهما يدفع السرير وآخر يحمل المحلول الوريدي، ويثبت قناع الأكسجين على وجهه، وقد دفعا السرير بسرعة بالغة باتجاه المصعد الذي اختفيا بداخلهِ في لحظة إلا واحدًا منهما قد تخلف، واتجه قاصدي ..

تسمرت في مكاني، وانقطعت كل الإشارات العصبية بطريقة لا يقبلها الجهاز العصبي

كان الآخر أمامي مباشرة، عاقدا كفيهِ وقد أظهر بعض الشفقة هذه المرة قائلًا:

لقد انخفضت نسبة تشبع الدم بالأكسجين جدًا؛ ودخل في غيبوبة وتم نقله إلى العناية المشددة ومرجح أن الجلطة أدت إلى ضمور في الجانب الأيسر من المخ .....

لم تنبعث من شفتي أي كلمات؛ فقد اكتفيت بالدموع وأخيرًا تحرر لساني من لجامه ونطقت قائلة:

- هل يعيش؟؟

- سنتابع حالته جيدًا، ونتمنى ذلك، أعطاني الحقيبة المخصوصة بأبي

واستدار سريعًا بعد أن ناداه الممرض الآخر ودخل المصعد.

جلست في نفس المقعد وقد دفنت وجهي بين راحتي، أتابع البكاء في صمت؛ ولكن صوت الهاتف الذي تابع الرنين في حقيبة أبي أوقفني ودفعني للرد كانت جارتنا وصاحبة المبنى الذي نقطن فيه ... هى "الحاجة سعاد"

- السلام عليكم، أستاذ أحمد.

- أجبت بصوت منكسر لم يسلم من التقطع بالدموع ... وعليكم السلام

- من؟.. هل أنتِ نجمة؟!

- نعم..

- لماذا تبكين؟ أين والداكِ؟

- إنه في المستشفى.

- هل هو بخير يا ابنتي؟؟

- لا أعلم.. لا أعلم.. فلا أحد يخبرني بذلك.

- لا تقلقي إن شاء الله سوف يكون بخير، رنا وأحمد -إخوتك- يمكثان عندى، عندما أتيا لم يكن هناك أحد في الشقة، لا تقلقي عليهما واخبريني بكل جديد.

- شكرًا لكِ .....

انقضت ساعتان طويلتان علي، كأن ضيفًا ثقيلا قد لازمني فيهما، لقد كان الانتظارفظيعًا ... وما أبشعه ضيفًا ..!! حينما يصطحب القلق وأي قلق.

لقد دخل أبي إلى غرفته في جناح العناية المشددة، ولم أترك ذلك المصحف الصغيرالذي كان يحمله دومًا في حقيبته، لقد ظللت أقرأ فيه وأبكي، كما لو كانت كل الآيات تخاطبني.. لا جديد.. لا أحد يخبرني بحالته؛ لا شيء سوى دقات القلب الذي انتفض وكأنما يهرب من وحش يطارده ....

أين الطبيب المختص؟؟

أين الممرضات اللواتي كن يملأن الرواق منذ لحظات؟

أين ذهب الجميع؟؟

لقد نفذت طاقتي وأفرغت كل علب صبري

ارتفع صوتها ولكزت كتفي في عنف كي تنبهني

التفت إليها في ذعر:

- ماذا حدث؟؟

- الدكتور عامر يطلبكِ في مكتبه

- هل استفاق أبي ..؟؟
- لا أدري ولكن الطبيب سيوضح لكِ الأمر ...

أمسكت بيدى ووجهتني إلى غرفته، لقد كنت أسير معها بخطوات تكاد تكون واثبة، أو لا أعلم هل كنت أستبطىء قدمي لأني كنت أخاف من سماع ما كنت أخشاه؟.... هل يقولها ذلك الطبيب؟.

طرقات مضطربة على الباب .. خافتة هي لمن في الداخل ولكنها عالية خارجه ... عالية جدًّا أيضًا بداخلي، كادت أن تصم آذاني؛ فتحت باب تلك الغرفة الصغيرة نوعًا ما ذات إضاءة خافتة، وهناك تلك الملصقات المتراصة على الجدران للتوعية وغيره .. فقط دأب أو نظام معتاد، ذلك الكرسي الذي يقع في نهاية تلك الغرفة الصغيرة يجلس عليه طبيب ذو شعر أشيب ونظارة طبية كبيرة ذات إطار أسود سميك أدكن اللون.

- تفضلي .....
- نعم ... أنا؟!
- بالتأكيد أنتِ.

سأتكلم بصراحة بالغة والدكِ الأستاذ "علي أحمد" .. يعاني جلطة دماغية أدت إلى ضمور في الجزء الأيسر من الدماغ، مؤدية إلى شلل نصفي عن الحركة ودخل في غيبوبة، نسبة وعيه فيها ضئيلة جدًا .. وبكل أسف عليه، هذا النوع هو ما يسبق النهاية بخطوات معدودة ..

- أهذا يعني أنه سيموت؟

لم يجب وحنى رأسه محدقًا إلى الأرض

بعد صمت خارجي، هياج وبكاء داخلى

انطلق صوتي المنكسر المتألم .....

- هل يمكنني رؤيته؟؟
- بالتأكيد ... الطابق العلوي جهة اليسار

ثم كتب ورقة وأخبرني أن أعطيها للأمن المسئول عن الطابق.

قمت من ذلك الكرسي وكأن أحمال الدنيا كلها وضعت على عاتقي، نظرت إلى ذلك الطبيب الأشيب لمرة أخيرة قبل أن أخرج، ونظر لى بابتسامة مختلقة جافية، حقا لا تحمل معنى الابتسامة أو حتى شبحها؛ فقط حرك عضلات

وجهه، مؤديًا سلوكًا مألوفًا مع كل المرضى حتى مع من يخبرهم أنهم سيفقدون والدهم إلى الأبد.

يبدو أن نظراتي الطويلة قد نمت إلى خاطره ليعاود الكلمات، وشق تلك الابتسامة المختلقة صوتُه المندفع متسرعا:

"اصبري واحتسبي ..."

لم أعاود النظر إليه مرة أخرى، يكفي ماسمعته، وخرجت من تلك الغرفة اللعينة التي بعثت الكآبة إلى نفسي، وبشرتني بأن والدي على فراش الموت؛ بل إنه على حافة الموت تقريبًا.

الفصل الثاني

لحظات قاضية ...!!

لم أستطع أن أتماسك، بالأمس كان بيننا .. وقبل ساعات كنا نضحك معًا والآن أين أبي ..؟ أين يوجد؟ ماذا سأفعل من دونه؟؟ لقد ثقلت الأفكار في ذهني وترددت الكلمات مرارًا، وأظلمت الدنيا تجاهى وصارت حلكاء السواد، ليس فيها بصيص من الضوء، تجاه من فقد حياته أمام عينيه.

صعدت إلى الطابق العلوي حيث وصف لي الطبيب وأظهرت الورقة لموظف الأمن والممرضة التي كانت تبادله الحديث فأدخلتنى بعد أن ربتت على ظهري. قائلة: "هوني عليكِ .. كان الله في عونكِ".

يبدو أنها تعلم ما ينتظرني في الحياة، وحيدة من دون أبي ... لم أشعر بنفسى وأنأ أدخل تلك الغرفة، لم أشعر بها وهي تلبسني البدلة البلاستيكية، أو تلك الكمامة أو غطاء الشعر فقد كنت أتحرق لرؤية أبي ..

هل يا تُرى تكون تلك هي المرة الأخيرة التي أرى أبي فيها؟؟

هل يتركنا وحدنا بالفعل؟؟

أكره الكوابيس وأتمنى كل ليلة ألا تصادف أحلامي ولكن تمنيت الآن أن يكون هذا مجرد كابوس.

حينما وقعت عيني على أبي الممدد على الفراش على غير عادته، فقد كان يكره الجلوس على الفراش إلا مضطرا للنوم، تلك الأسلاك التي اجتاحت صدره المكشوف، قناع الأكسجين ذلك الذي يكاد أن يلتهم وجهه الصغير، تلك الأجهزة الكثيرة التي ترصد ما يحدث داخل جسده المسكين الضعيف الوهِن.

جلست على حافة سريره ممسكة بيديه لكنه لم يقبض عليها تلك المرة، عفوًا يا أبي لا أستطيع أن أمنع نفسي من البكاء.

أعرف إنك لا تحب أن أبكي، عاودتني الذكريات، تناجي أطياف الماضي المؤلم تلح على عقلي في أن تأخذ دورها فقد مرت لحظة فراق إزائى، الآن .... فقط، عرفت لماذا كان يبكي أبي؟ كيف كنت أمسح دموعه وأخبره ألا يبكي؟ كان يحتضنني

بقوة، ويبكي ولكن الآن أنا من أحتمي به وأبكي، أذكر أمس كيف كان يضفر لي خصلات شعرى بهذه اليد؟

كيف كان يمسك بيدي ليلًا ليطمئنني بأنه بجواري وأنه لن يتركني أبدًا، كيف كان يمسح دموعي قائلا لي: "إننى حين أبكي تبكي أمكِ، وتظن أنني أهملكِ وإنه لا يحب أن تبكي أمي".كنت أتراجع دومًا عن بكائي كى لا يحزن ... حتى لا تبكي أمي وحبيبتي ولكن الآن، لابد أنها تبكي ولابد أنك حزين، فلتسامحني يا أبي ... لاأستطيع أن أمنع عيني من البكاء فهى ليست وحدها من تبكي، سامحنى فقلبى أيضًا يبكي وكل جوارحي تبكي

سامحيني يا أمي سأجعلك تبكين كثيرًا من الآن ..

- أبي .. أبي ... أبي .... قطعت كلماتي صوتي المتحشرج وأنفاسي اللاهثة

لا تتركني ..... ألم تقل بأنك لن تتركني وحدي؟! أبي، صغيرتك تبكي هيا انهض يا أبي.

تلك تقريبًا هي الكلمات التي تعاقبت على لساني أو في قلبي، لعل من حولي لم يفهم ماذا أقول من نحيبي وشهقات بكائي المرتفعة ولكن لم أعد أتحمل .....

لقد سقطت مغشيًا عليّ ... تلك هى الكلمات التي وضحتها لي الممرضة التي كانت تراقب حديثي مع والدي بحزن وكأنه مشهد درامي مؤثريأخذ بطولته ممثل محترف ويؤديه بشكل مثالي، وأفرغت زجاجة المياه على وجهي لكي أعود إلى وعيي؛ وبدون أن أنطق بأى كلمة رحلت وكأنني لا أترك شيئًا يخصني لهم؛ شيئًا غاليًا جدًّا عليّ، لم أستطع أن أتحمل لقد خرجت من هذا المشفى اللعين لأنطلق مسافة بعيدة تلاطمني الأحداث،تكرر مشهد أبي الأخير إزاء عيني كثيرًا، صورته وهو مُمدد تعتصر قلبي وتُبكي عيني بصمت أليم حتى أن المطر كان يهطل بشدة، وكأنه يزيد تلك الأعاصير التي تهمر بداخلي ولكن صوت الأعاصير لدي كان أشد وأعنف، عبرات السماء المتتابعة لاتقارن بعبراتي التي امتزجت بالألم والخوف من المستقبل في غياب المستقبل ذاته.

ساقتني قدماي إلى أكثرمكان محبب لأبي، دومًا كان يذهب إليه حين يشعر بالضيق، حين يشعر بأن الحياة جارت عليه وآلمته كثيرًا ذلك المكان الذي كان يرسل همومه مع الأمواج فيه.

ولكن أنا الآن سأخبره بأن حبيبه لن يعود، لن يأتي إلى هنا مرة أخرى

"أيها الموج خذ همي فإني لن أستطيع تحمله، لن أستطيع أن أقف وهوعلى ظهري

ولكن البحر كان يأبى أن يصدق هذا، أظنه يرفض الذي أقوله فكلما أرسلت همومي مع الموج لفظها البحر مرة أخرى وكأنه يأبى تصديقي، وكأنه يرفض أن يصدق أن أبي سيرحل ويتركنا فى ظل تلك الآلام المتتابعة، تعلن الشمس مغيبها غير آبية بأن شمس حياتي أيضًا تستعد للرحيل بلا إشراقة في صباحٍ تالْ"

لا أعرف كيف قطعت كل تلك المسافة من دون شكوى من قدمي، قررت أن أستقل "المترو" فالحافلات لن تساعدني أبدًا، كانت الأمطار قد هدأت قليلا لكن أمطاري لم تهدأ قط، بل أنذرت بليلٍ مؤلم قد اتخذ من البكاء ضيفًا مزعجًا ...

أخيرًا ركبت عربة المترو التي كانت مكتظة تقريبًا بالناس ولكن هذه أول مرة، أركز في تلك الوجوه الصاعدة إلى المترو وبالابتسامة المختلقة على وجوههم تجاه بعضهم

حتى إنهم لم يستطيعوا أن يرسموها بدقة وحرفية بالغة؛ كنت أترنح يمنة ويسرة غير متامسكة بأي حال، لقد انتبه لذلك أحد الجالسين فسمح لي بالجلوس مكانه

لا أعرف أشكرته أم لا؟

رؤيتى لذلك الرجل الذي يمسك بيد ابنته الصغيرة وهي جالسة على قدميه، يذكرني مرة أخرى بأغلى إنسان في الوجود، متحمل الأعباء، من أفنى عمره لى بدون شكوى ولا بكاء .. إنه أبي .. غصة مريرة قد اعتصرت قلبي.

فعاودت عواصفي الضجيج مرة أخرى، ومنحتني سيدة عجوز كانت تجلس بجواري منديلًا ورقيًا بعد أن استغرقت وقتًا طويلًا في البحث عنه فى الحقيبة.

ثم ربتت على ظهري بعد أن تمتمت ببضع كلمات لم أسمعها من هول تلك العواصف التي اشتدت علي، ولكني سمعت نفسي أشكرها على لطفها البالغ.

لقد خَلَت عربة "المترو" تقريبا من معظم الركاب لم يبق إلا قلة من الناس وأنا وبينهم الشاب الذي قام من مقعده لأقعد مكانه، فقد كان يقعد على نفس المقعد الممتد الذي أقعد عليه، نظري مثبت فى الأرض كي لا يرى أحد عبراتي المتواصلة على وجنتي جعلني أنظر إلى ذلك الحذاء الذي كان يرتديه؛ يبدو إنه

حين تنطفئ النجوم

حذاء غالٍ ومعه أيضًا ساعة جميلة كنت أنوي أن أشتري لأبي مثلها في ميلاده القادم، ولكن يبدو أنه لا ميلاد قادم لي معه؛ سوف يرحل ويتركني .. يبدو إنه ليس راكبًا عاديًا للمترو كأمثالنا نحن ...

وعندما حان وقت نزولي لم أعلم أن البحر قد صدق كلامي، وأخبر السماء بأن أبي راحل عما قريب، نسيت أن أحضر مظلتي ولكن لم يعد الأمر مهما فأمطار قلبي

هي من تحتاج إلى مظلة فهي لاتوازن بأمطار السماء.

لقد خرج ذلك الشاب معي من محطة المترو، وعندما رآني أمشى تحت الأمطار أعطاني مظلته لكي أحتمي بها من المطر لكني رفضت في البداية؛ فأكد لي أنه سينتقل بسيارة، ثم تركها في يدي ورحل، لم استطع أن أرى وجهه، لم أحب أن يرى أحدٌ دموعي، كما إنه كان يرتدي غطاءً للرأس ثخينًا ليلائم الشتاء والبرد.

شق عنان السماء برق يخطف الأنظار ويخطف نظمها الرتيب الهادىء، اضطررت أن أفتح المظلة وأسير بها في الطريق؛ فمنزلنا يبعد تقريبًا نصف ساعة عن هنا.

نصف ساعة لم يخلو فيها عقلي من التفكير في أبي: صورته ضعيفًا راقدًا بلا حَرَاك تعاود نهش ذاكرتي بقوة، تعاود إيلامي مصحوبة بدموعى التي لم تفارقها منذ الصباح

سرت قشعريرة في بدني نشرت البرد في أوصالي كلها؛ أخيرًا، وصلت إلى الشارع الذي نقطن فيه ... ذلك الحي الهادىء، حي لايسكنه إلا كبار السن تقريبًا، ولا يوجد فيه أطفال يلهون في الشارع إلا قليلٌ جدًّا يتوسطه مسجد جميل قد علا مقامه وظهرت قبته الخضراء متلألأة في عنان السماء ... ونفذ إلى مسامعي صوت الشيخ "جعفر" مؤذن

المسجد وهو يقيم صلاة العشاء، يتلو فيها آيات القرآن من سورة النحل بصوته العذب الذي لم يفشل في أي مرة أن يخاطب قلبي:

+وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨ـ.

وكأنها نفحة روحانية تواسي قلبي وتدفعني للصبر؛ أكملت السير على صدى تلك الآيات

ووصلت إلى المدخل المقابل للمبنى الذي سكنت أمامه سيارة حمراء غطاها الغباروهي لزوج الحاجة "سعاد"، نظرت إلى مرآة السيارة، لم تكن نجمة التي أعرفها، زفرت مطولًا قبل أن أدخل إلى المبنى وحيدة، ولا أعلم نهاية لتلك البداية ولكنها البداية تُولد من رحِم النهاية ... نهاية مؤسفة.

في الطابق الأول شقة مالكة المبنى طرقت الباب رويدًا وأنا أمسح ما بقى من دموع لن تنفد أبدًا، كانت هي من فتحت الباب تلفتت خلفها خوفًا أن يسمعها أحد.

قائلة: اخبريني لماذا لم يأتِ إلى الآن؟؟ هل هو بخير؟؟

أصابتني غصة ذات مرارة وأنا أبتلع ريقي بصعوبة لأحاول الإجابة عليها:

- .. لقد دخل في غيبوبة ....

- غيبوبة سكر!؟؟ هل يعاني من مرض السكري؟

- لا .. إنها جلطة دماغية.

مسحت على رأسي قائلة:

- لاتقلقي عليه سأصلي الليلة وأدعو الله أن ينتزعه من تلك المحنة فإنه قادرعلى كل شيء، ولا تخبري إخوتك الآن.

ابتعدت وعلى وجهها ابتسامة مطمئِنة وقد تكلفت هي عناء الكذب، وإخبارهم بسفر أبي لزيارة صديقه المريض، صعدت السلم وأنا أشق أول طريقي في حمل مسؤلية إخوتي فتحت باب الشقة ودلفت إلى غرفتي خوفًا من أن أتعرض لأي أسئلة استفسارًا عن أبي.

الذكريات المهيبة الجميلة لأبي في كل ركن من أركان البيت؛ وبدأ ضيفي المزعج بالتدخل من جديد وذكرياتي تعيد نفسها مرارًا وتكرارًا؛ لولا الدقات التي ترددت على الباب وصوت رنا الصغيرة يدعوني إلى العشاء .. لكانت تلك الآلام التهمتني ولم تترك لي أثرًا.

ابتسمت على الرغم من كل تلك الآلام، وهذه أصعب بسمة، فهأنذا مدعوة على عشاء في ليلة أنذرني فيها القدر بقرب رحيل أبي، لقد جففت دموعي وخرجت لهم، ويا لصعوبة أن أخفي آلامي في قلبي دون أن أبديها ولكن كنت مُضطرة لذلك.

تذكرت أبي كيف استطاع أن يكون متماسكا بعد فراق أمي، كيف أفسح للسعادة مجالًا وتركها ضيفًا بدلًا من البكاء أو هكذا كان يُبدي إزاءنا ... لقد كبرا واستطاعا أن يعدا العشاء وحدهما، لو كان أبي هنا لفرح كثيرًا، ولكن أين أبي؟؟ ..

تناولت معهم العشاء وبادلتهم الأحاديث خوفًا أن أترك نفسي لتفكيري الصامت الذي يقتلني، ولكن عليّ أن أخبرهم؛ فلن أستطيع الكذب عليهم .. فعلى كل حال سيعرفون ولكن لأدع الضيف يزورني وحدي الليلة، وأعتقد أن هذا كافٍ ...

- سأنام الليلة معكِ يا نجمة.

- كما تشائين يا رنا، سأصلي وألحق بكِ.

دخلت غرفة المكتب لكي ألتقط سجادة الصلاة منها الخاصة بأبي؛ فوجدتها ما زالت على الأرض فى موضعها منذ الصباح بجوارها مصحفه، تسرب إلى مسامعي صوت أبي العذب الجَهوري وهو يقرأ القرآن .. ومسبحته التي اعتاد أن يمسكها بعد كل صلاة

لا زالت ترافق مصحفه، كدت أن أستسلم لذكرياتي المؤلمة، لكن تذكرت سريعًا أن رنا تنتظرني، فقضيت صلاتي ...!! ولا أعرف حتى ماذا قرأت فيها .. أأديتها بخشوع كما علمني أبي أم لا؟ لا أعرف سوى أنني كنت أفكر بأبي فقط ....

عندما دخلت غرفتي، وجدت رنا قد غفت وهي تنتظرني، ولا أعرف الآن كيف أخبرهما؟ وضعت رأسي على الوسادة مُحدقة في سماء غرفتي التي لانجوم لها ولا قمر.

هذه هي أول مرة أنام في البيت وأبي ليس موجودًا فيه، لا أعرف كم من الوقت ظللت مستيقظة، ولكن يبدو أنني غفوت سريعًا ..

ومع صوت أذان الفجر استيقظت كعادتي لأصلي، وأيقظت إخوتي لكي نصلي معًا

حتى أن أحمد نزل ليصلي في المسجد كما كان ينزل مع أبي، ولكن الآن هو بمفرده تمامًا وأنا ورنا بمفردنا، قضينا صلاتنا وغفت رنا ودخل أحمد لينام سريعًا، لكن يبدو أن النوم قد ضل الطريق هذه المرة،كان عليّ أن أسمح لهما برؤية أبي مهما كانت النتيجة حتى يتفهما موقفي، ويريا ماذا علينا أن نفعل؟؟ فأعددت الفطور وأيقظت إخوتي، وأثناء الفطور .....

أحمد: هل أخبركِ أبي متى يأتي؟

صمتُّ وقد نال من وجهي بعض الارتباك قبل أن أحسم رأيي قائلةً:
- سنذهب لاستقباله.
رنا: هذا جيد، ربما علينا إعداد الطعام فبالتأكيد لم يتناول طعامه جيدًّا .
ركبنا سيارة أجره، وأعطيت السائق العنوان هذه المرة مكتوبًا حتى لا أثير الشكوك في نفسيهما منذ البداية .. تنبهت حواسي عندما ناداني السائق بأنني قد وصلت إلى وجهتى
عندما دخلت إلى المستشفى شعرت وكأن الدنيا بدأت تضيق؛ وكأنني لا أستطيع أن أتنفس حتى يبدو أن مشهد البارحة سيُعاد بالتأكيد؛ كان عليَّ أن أرى الطبيب لكي يسمح لنا بالدخول إلى أبي، بالفعل سألت عن الطبيب "عامر" فأخبرت بأنه في غرفة العمليات الآن وعليَّ أن أنتظره، وبدأت الأفكار تدور في عقلي ولم تدع لي مجالًا ولا مهربًا قطُّ ...
أأدع الطبيب يخبرهما أم أخبرهما أنا .. أم يؤجّل هذا الآن وأحمل الآلام بنفسي؟؟
ولكن ابنا الاثنى عشرعامًا بالتأكيد لن يجعلا هذا صعبًا عليَّ، سيفهمان سريعًا.
أخيرًا، صوت الممرضة ينتزعني من تفكيري:
الطبيب ينتظركم في مكتبه نهاية هذا الممر.
شكرًا.
لقد خطوت خطواتي سريعًا، وكأنني أريد أن أتخلص من تلك التصنعات التي أمتثلها إزاءهما عندما أتحدث عن أبي المسكين ... دقات سريعة متعاقبة على الباب ...
نفس الغرفة ذات التصميم الكئيب ... نفس بسمة الطبيبة السخيفة المألوفة "الروتينية"
-اتفضلى يا آنسة "نجمة".
-شكرًا.
- هل هم إخوتك؟؟
أومأت إليه.
- رجاءًا، هل يمكنك شرح حالة أبي؟؟
- تقصدين لهما؟ .. لاأفضل أن أكون أنا المتكلم .. سأسمح لكم برؤيته.
رسم على ورقة توقيعَه وكتب رقم الغرفة ... الآن أنا أعتذر منكم،فعليَّ أن أتابع حالة مريض آخر.

ترك الغرفة بعد أن ربت على ظهر أحمد بخفة متوسطة قائلا له:
- لاتبكِ الرجال لا يبكون ...
- عفوًا .. الرجال بشر يبكون مثلنا، بل أكثر، الفرق هنا أنك تخبره بأن والده يموت وتدعوه بعدم البكاء والقوة، ثم تضحك في وجهه ضحكة سخيفة ليست في حينها أبدًا ... هذا مشهد مستفز للغاية، ولو كنت في حالة تسمح لي بالمزيد لعنفته:
ولكني كنت في حالة لا أحسد عليها أبدًا.
ثم غادر في صوت لم يودعه إلا صرير الباب المزعج ...
بالطبع، إخبارهما كان المهمة الصعبة التى كان عليَّ أن أتولاها بجرأة مؤلمة، لا أمنح فيها أملًا كاذبًا وعلى الرغم من ذلك أبقي باب النجاة احتمالًا ولو ضعيفًا جدًّا، ولكن الآن علينا أن نلملم شتات أنفسنا لكي نرى أبي.
حالتنا الآن لاتختلف عن حالي عندما عرفت من قبل، ليس إلا أنني -هذه المرة- أدرك أنه ليس كابوسًا وإلا لما تكرر مرتين .. مواساتهما كانت أمرًا عليَّ تحمله حتى لو ثقل عليّ ...
أدخلتنا الممرضة الغرفة على حدة، وسمحت لكلٍ منا بدقيقتين، اعترضتُ على ذلك لكنها أخبرتني أن هذا لمصلحة المريض أولًا، فلم أستطع إلا أن أذعن لقرارها فربما هذا يمنحه طوق النجاة، هذا هو الأمل الذي تشبثت به، وعلى الرغم من إدراكِي أن هذه إجراءات مألوفة "نظامية" فحسب فإنني حاولت أن أقنع نفسي بهذا، ولكن لا فائدة، دخلت رنا أولًا ثم أحمد ثم أنا الأخيرة، يبدو أنه كان يوم الدموع الأكبر، ولكن على الرغم من هذا
كان عليّ أن أمنحهما القوة والأمل حتى لو كنت أكذب هذه المرة؛ فلابد أن أكون أنا لهما معينًا حسنًا، وأخبرتهما أن أبي سيحزن كثيرا لو رأى بكاءنا الآن، إنه أوصاني ألا نبكي
فعلينا أن نتحلى بالشجاعة، ونتوسل إلى الله أن يشفيه، والآن أبي هنا موجود، لقد رأيناه،
إنه حي ولم يمت، فلمَ البكاء؟!! ....
مكثنا بضع ساعات في الطابق الأول ندخل إليه بين الفينة والأخرى؛ لنطمئن على حاله من إحدى الممرضات التي كانت تكرر في كل مرة نفس الجملة:

لا جديد .... ما يزال غير قادرٍ على التخلي عن قناع "الأكسجين".

لا نراه إلا دقائق معدودة ونتعذب بفراقه بقية الساعات، وتحرقنا الدقائق المتعاقبة وتحاول أن تمنع نفسك أيضًا من البكاء، فقط، لكي تصبح قويًا إزاءهما؛ لأنك إذا ضعفت من سيكون القوى؟ لابد أن أتماسك .....

كان اليوم هو الأخير لتقديم المشروع البحثي الذي مكنني من تخطي السنة الأولى في أكاديمية الفنون، بحثت عن سيارة أجرة، وذهبت إلى مقر الأكاديمية، أسندت رأسي إلى نافذة السيارة، أحرك عيني بين الطرق كورقة شجر في خريف قد سقطت من قمة شجرة ليحطمها ارتطامها بالأرض، أنا الورقة وأبي الشجرة.. بالأمس كنت السعيدة الصغيرة، والآن تحطمني الهموم بلا شفقة.

وصلت هناك في تمام الساعة الحادية عشرة وست دقائق.

في خطى ثابتة كجندي يعرف وجهته استطعت أن انتهي من تقديم المشروع؛ وسلكت الطريق إلى المستشفى هذه المرة على الأقدام، وفي تمام الساعة الحادية عشرة وأربع وأربعين دقيقة. تلقيت اتصالًا من هاتف أبي، ظننته -أول وهلة- هو .....

أجبت فورًا، إذ أتمنى أن أسمع صوته الحنون من جديد، كنت أتمنى أن يكون هو، كان أحمد يخبرني أن الممرضة تبحث عني وتطلب حضوري.

- هل استفاق أبي؟ هل أخبروك؟.

- رفضت أن تخبرني بشيء،نحن ننتظرك لاتتأخري.

لم أكن بعيدة عن المستشفى كنت على بعد عشر دقائق تقريبًا، قطعت المسافة مهرولة فقد كنت أسلك طريق ضيقًا مختصرًا لا يكاد يتسع إلا لبضعة أفراد أن يسيروا فيه، كنت أحاول أن أقنع نفسي بأن أبي حي، وبأنه لم يمت، وبأنه عاد إلى وعيه وخالف ظنونهم واستيقظ وأنهم لا يدعونني لأمرٍ محزن.

الفصل الثالث

رحيـل

عندما دخلت المستشفى، بحثت بعيني عن تلك الممرضة، لم أجدها فهرولت إلى مكتب الاستقبال، لم ألفظ كلمة بعد .. حتى شعرت بقبضتها تلتف حول ساعدي بإحكام، وتجرني جرًا إلى غرفة الطبيب، بدون دقات على الباب ... فقط دخلت إلى هناك

- هل استفاق؟؟هل هو بخير؟؟

لم أتلقَ هذه المرة جوابًا، اكتفى بنظرة حملت في عمقها مواساة لاتنفع:

- أنا آسف لقد توفي المريض.

- ماذا؟؟ لا، مستحيل أن يحدث هذا!..

- أرجوكِ اتصلي بأحد أقاربك ليقوم بإنجاز الأوراق.

بمقلتين جاحظتين قد قذفتا الدموع، علها تطفىء حرارة الفقدان ... صمت خارجي وضجيج وصياح وبكاء داخل قلبي الذي يتمزق، وأنفاسي تتردد وكأنها نار حامية.

جلست على ذلك الكرسي الذي تلقيت عليه خبرما قبل الرحيل.

أحاول أن أعود إلى نفسي ولكن أين نفسي؟؟ لقد رحلت نجمة الصغيرة مع رحيل أبيها.

واتصلت بعمي سامح -الأخ غير الشقيق لأبي-، فقط، لأخبره لكي يقوم هو بمراسم الدفن، لا أعرف كيف أنطق أنا بتلك الكلمات، كيف استطعت أن أفعل هذا؟ كيف؟!!!

لقد كنت في عالم آخر لا يعرفه أحد، فقط، جسد حاضر، وعقل غائب، نظراتي الأخيرة لأبي بعد أن تمت إزالة الأجهزة والأسلاك عن جسده البَرِد، المغطى بوشاح أبيض ... نظرات مطولة، دموعي حبيسة في عيني لم استطع أن أطلقها حتى لاَ يحزن أبي في آخر مرة أراه فيها، يدى تلامس يده البَرِدة للمرة الأخيرة، رؤيتي لوجهه البَرِد ... صوت الممرضة وهى تنطق: ساعة الوفاة الثانية عشرة وعشرون دقيقة.

"آآه على حياة بدون حبيبي" أنا أعرف الآن أنه سعيد؛ فقد كان يود أن يرى أمي لقد أخبرني بذلك من قبل، فقد دعته ليأتي لها، وهو لم يتأخرعنها، لقد كانت أمنيته لقاءها

إنه ليس بيوم حزين فبالتأكيد هو الأسعد لهما.

لقد حضر الجميع ... ولكن رحل أبي ... ضممت إخوتي إلى صدري لكي أواسيهما على فقدان من لا تعويض عنه، على فقدان ربيع الحياة واستقبال خريف مكفهر.

لقد ذهب أحمد مع عمى كي يحضر مراسم الدفن، وعدت أنا ورنا إلى البيت مع جارتنا دخلت غرفتي باكية .. وظللت أبكي ساعات لم أحصيها عددا، وأنا أنظر إلى تلك الصورة

التي أصر على أن يلتقطها له ولأمي معًا، ويضعها بجانب سريري حتى لا تغيب أمي عن بالي ...

لأدعو لها في صلاتي، وحتى لا أنسى ملامحها يومًا حتى أنظر إلى من وهبتني الحياة بلا مقابل وأنظر إلى حبيبته، حتى أحفر اسمها وملامحها في قلبي، أنظر الآن مطولًا إليك يا أبي أنت وأمي، لن أنام ليلة بدون أن أودعكما سأدعو لكما في كل سجدة، سأشتاق إليكما كثيرًا ..

عاد أحمد عشاءً وحيدًا إلى البيت،قميصه الأزرق استحال لونه إلى الرمادي من التراب الذي أهالوه على قبره، بعيون باكية وكأنها قذائف تحرقه بآلامها، وهو يهتف بحشرجة باكيًا، لقد رحل يا نجمة، إنه الآن وحيد، عانقني وأنا أمسح بأناملي وجنته المبتلة.

قد يكون جفناى قد ناما، وعيناى أغلقت، لكن بقى قلبي وعقلي لدى أبي، بقيت محتضنة صورتهما في قلبي.

في الصباح ...

دق أحد الباب مرات عدة فتحته لأجد امرأة لا تبدو شابة ولا تبدو عجوزًا ترتدي ملابس سوداء كحلاء، احتضنتني بقوة، لم أستطع أن أحدد ملامحها جيدًّا، ولكني سريعًا ما تذكرتها، إنها خالتي، لم أرها سوى مرة أو مرتين من قبل. مرة حينما توفيت أمي، والمرة الأخرى لا أتذكر موعدها؟

إنها تدعى "سمية" ولكنها لا تشبه أمي أبدًا، لديها عينان شديدتا السواد وبشرة قمحية، هي سيدة أرملة ليس لديها أولاد، لم تكن على علاقة بنا بسبب بُعد المسافة واختيارها للعزلة والوحدة بعد وفاة زوجها، كانت تعيش في قرية صغيرة بعيدة جدًّا من هنا، ولكن لماذا أتت بعد كل تلك المدة؟؟

الفصل الرابع

مرت ولكن تركت أثرًا

وبعد مرور عامين وأربعة أشهر .....

- يا خالتي ...

- نعم، يا نجمة.

- سأذهب الآن، وربما أعود في السادسة، سأذهب إلى الجامعة، ومنها إلى العمل ...

لقد تركت المال على الطاولة إذا أتى عمي "كامل"

- لاتقلقي .....

عدلت من وضع النظارة الشمسية القاتمة على عيني؛ وعلى الرغم من أن أشعة الشمس ليست قوية فإنها شيء اعتدت عليه تقريبًا.

الحياة لاتتوقف مغ غياب أحد، ولكنك تفقد شغفك تجاه أشياء بعينها ... تتجنبها، تفضل الصمت الطويل، لا تقلق، ستعتاد كما يفعل الجميع قد يموت جزء منك ولكن الباقي لازال حيًا أو يصرعلى الحياة فلن نتوقف رغمًا عنا.

لقد قررت أن استخدم طريقة أبي لكي أنسى آلامي، وأستطيع مواصلة حياتي،

لقد قررت أن أقرأ، فأنا بالفعل لا أحب القراءة، وأجواء الكُتاب الغامضة، ولكن حقًا هذه هى الطريقة الوحيدة التي جعلتني أنسى قليلًا، لقد قرأت تقريبًا كل كتب أبي التي كتبها قرأت كل كتبه المفضلة لعمالقة الكُتاب، بدأت لغتي تتغير قليلًا ... صرت أتحدث بكلام

أبي الممنهج ذا الفلسفة الغامضة والعميقة ...

أتعرف الذي يتمسك بما بقى من أحد؟

البعض يلزم ملابسه .. ساعته .. نظارته .. والبعض يلزم ما أحبه وما اختاره ... هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنك أن تبقيه حيًا فيها. سيبقى حيًا خالدًا بداخلك .. وبداخل قلوب من أرادوا إحياءه.

هناك طريقتان كنت ألجأ إليهما في حال ضعفي وظني أني لا أستطيع إكمال المسيرة، فكرت كثيرًا بعد فراق والدي أن أنتحر، بل بادرت إلى الفكرة فعليًا، ذهبت إلى أكثر مكان يحبه أبي، قررت أن ألقاه، فقد اشتقت إليه جدًا .. وما الغريب؟؟ لا أستطيع المواصلة هكذا وحسب. كنت مندفعة لفكرة الانتحار

بشدةٍ، لكن سرعان ما تذكرت الأمانة التي أحملها، تذكرت وعدي لأبي بأن أكون قوية.

قرأت كل الكتابات التي كتبها والدي، وكأنه كان يخاطبني بكلماته وكأنما كان يطلب مني أن أستمر في المحاولة، فبعد فراق أبي شعرنا حقًا بقيمة قدرته الفائقة على تقبل إلحاح صاحب البيت الشديد على الإيجار، وتقبل مصاريف الدراسة ومستلزماتها والبيت ومتطلباته، وأشياء أخرى لم تخطر على بالي من قبل حقًا، لابد أن ندرك قيمة الإنسان وجهده ولكن ليس متأخرًا، كيف كان يجيد الأمر؟ لم تكن الأمور سهلة بالمرة، كما لم نتوقع أن تكون غير ذلك.

لكي تنخرط في عالم جديد ومرحلة جديدة كليًا؛ عليك بفكر جديد منتظم لا يهمه لون الحذاء ولا الحقيبة ولا يلتفت للكماليات، والرفاهية تكون كلمة قد محاها من قاموس حياته، عندما تتحدث عن مسئولية فتاة مدللة؛ فالأمر يحتاج لشرح كبير، وإعادة هيكلة للكثير من الأمور وضبط النفس من جديد... خالتي قد تقاسمت تقريبًا تلك المهمة معي. فكانت تتكفل بالمنزل ومتطلباته، حتى البيت الذي تركه لها زوجها الراحل استطاعت أن تؤجره وتنتفع بالمال العائد ليلبي احتياجاتنا. وكانت أيضًا تعمل على ماكينة الخياطة التي كانت تستخدمها أمي وتبيع المنتجات... فيتحسن الحال قليلًا، دراستي في البداية لم تكن جيدة، حالتي النفسية ... وحجم الأعباء جعلني أتأخر قليلًا ولكن اعتدت على الأمر وتأقلمت مع عملي، ودراستي وبيتي وإخوتي.

الفصل الخامس

"مُختلف"

خرج من عمله مُندفعًا، استخدم السلم الخارجي ليكون الأمر أسرع بعد أن افتعل مشاجرة مع أحد المرضى.

تلقى اتصالًا من أحد جيرانه أن والدته قد خرجت من المنزل، وأنه رآها تتجول في الشارع وحدها ... وما الغريب؟!

أدارمحرك سيارته واتجه نحو منزله القابع على بعد بضعة كيلومترات عن المستشفى إنه "مراد الإمام"، طبيب في نهاية العقد الثاني من عمره وأوشك أن يلج الثالث.

كان يرتدى قميصًا أبيض، تلوثت أكمامه بالدماء التي نزفها عندما لكمه المريض في معركة حامية دارت منذ قليل ... نحيل الجسد قد بدت عظمتا فكيه بارزتين، وقد ظهرت حول عينيه هالات سوداء، بدت واضحة موازنة ببشرته البيضاء، ساعدان مفتولان قبض عليهما بشدة حتى برزت فيهما الشرايين مستنفرة بالدماء من شدة حنقه وغضبه؛ .. يعيش برفقة والدته "مريم" وحدهما.

ووسط تكدس مروري بلغ ذروته فهي ساعة الخروج من العمل، استطاع بصعوبة بالغة الوصول إلى الحي الذي يقطن فيه. جال ببصره سريعًا حتى وجدها تقف شاردة وحدها، تدقق النظر في واجهة "استديو" التصويرالذي كان ملكًا لوالده فهو يمثل مكانها الخاص الذي تلجأ إليه ظنًا منها أن أبي ما يزال فيه، لماذا هذا المكان كل مرة؟!!

ألم تسأم منه؟!!

اتجه نحوها وهو يتمنى أن تذكره هذه المرة، دلف بها إلى الشقة، وأجلسها في مقعدها، ظلت تسأله مجددًا عن سبب تأخر والدهُ في العمل، ويخبرها للمرة المليون إنه قد توفي منذ أكثر من عشرة أعوام وأن "الاستديو" لم يعد ملكه الآن؛ فتبكي في كل مرة يخبرها الحقيقة وكأنها تسمعها للمرة الأولى.

- كيف فتحتِ الباب؟؟

لقد فتحته بالمفتاح، لماذا تسأل هذا السؤال الغبي؟!!

زمَّ شفتيه بقوة قائلًا:
- وأين المفتاح الآن؟
- لاأتذكر أين وضعته، ربما يكون مع والدك دائمًا، يحتفظ بنسخة إضافية في "الاستديو".
لن يخبرها بالأمر مجددًا فقد سأم من تكرار الحقيقة، اتجه نحو غرفته بعد أن اضطر إلى تغيير القفل للمرة التي لايذكرعددها حتى الآن، حتى لاتهرب والدته مجددًا، بدَّل ملابسه سريعًا وخرج إلى المستشفى بعد أن تأكد وجود الطعام والشراب على المنضدة وتأكد إغلاق باب المطبخ بالمفتاح، ثم أدار المفتاح في القفل، وقبل أن ينفرج الباب، انقضت عليه والدته من الخلف بأيدٍ مرتعشة، التفت حول عنقه؛ فدفع الباب فورًا بعد أن أخفى المفتاح في قبضته..
- قاتل..!!!
تريد أن تقتلني كما قتلت زوجي من قبل، وأخفيته بالمطبخ أليس كذلك؟؟!!
تحرص على إغلاق الباب دومًا، تقضى الليل كله في تدبير خطط لقتلي؛ كما فعلت معه
أين ستخفيني أنا أيضًا؟؟
- أمي... أمي... أرجوكِ افلتي رقبتي لا أريد أن أؤذيكِ
فى الليل أترك المصباح مضيئًا لأننى أدرس والمطبخ فارغ فقط لأنني أخاف أن تؤذى نفسك من الموقد... وتود قتلي بالنار أيضًا ألايكفيك قتله..؟!
اضطررت إلى دفعها بعيدًا عني حتى سقطت على الأرض بعد أن اجتمع الجيران بالخارج يحاولون تحطيم الباب وإنقاذى منها.
ارتفعت العبارات الحانقة من الخارج:
إنها مجنونة!!! مجنونة!! لمَ لا تنتقلون من المنزل؟؟
لمَ لا تتركها في مستشفى المجانين وتمنحنا السلام في حياتنا؟
فقد سئمنا صراخها "الهستيري" كل ليلة.
احتضنت جسدها الواهن الذي ارتطم بالأرض ومسحت على شعرها في هدوء ثم حملتها إلى حيث تنام.
واتصلت بصديقي الطبيب"عادل" من المصحة النفسية..
- أهلًا، مراد، لمَ لاتتصل يا أخي ظننتك مت أو هاجرت؟

- ها أنا أتصل ... ويكفى مزاحك السخيف الآن.
- حسنًا .. ما الأمر هل هو متعلق بوالدتك؟؟
- أخبرني متى أحضرها؟؟
- هل تحضرها فعلا؟ .. صدقني سأتابع حالتها شخصيًا وستتحسن كثيرًا وسترى ذلك بنفسك بدلا من السجن الذي تحبسها فيه خوفا عليها ..... مراد ...!
مراد ..... هل تسمعنى؟
- نعم .. لم تقل متى أحضرها؟؟
- الآن .. سأكون بانتظارك عند البوابة، أخبرنى عندما تصل
- حسنا ..

كلما سنحت لى الفرصة كنت أتجه نحو البحر ...

كنت في البداية أخافه، وأكره صخبه ولكن أدركت أن صخبه يغطي على صوت صخبك الداخلي وكأنه يعطيك هدنة مع نفسك المتصارعة؛ في ذلك الوقت يغلبك النعاس مع لفح نسيمه وكأنك طفل صغير، لهذا أصبحت أحبه وهناك أيضا كان يحب أبي أن يفرغ طاقته السلبية، أستصحب كتبه لأجمع مايحب في مكان واحد، كنت أقرأها وكأنني أحيي ذكرى والدي، أفعل ما يحب وكأنما أدون له لحظاتي، أخبره أنني لن أنساه ووالدتى مهما ... مرت السنين وتعاقبت الأعوام.

في مقعد بعيد مبتعدة عن أنظار البشر أحب أن أنفرد بذكرى أبي

كان يومًا كباقى الأيام التي أذهب فيها إلى البحر، السماء كانت ممطرة بشدة، وهذه أكثر الأوقات التي يحب أن يذهب فيها أبي إلى البحر ...

يرى الظواهر الكونية بوضوح ولكن المدهش هو أنني أجد في نفس المكان الذي أجلس فيه شابًا عشرينيًا تقريبًا دفن وجهه بين راحتيه؛ وبدأ يبكي كالطفل الصغير، شهقات بكائه تعلو، تخالط أمواج البحر، ويعتصر قلبه الألم ..

زارتني ذكرياتي المؤلمة التي قضيتها على نفس المقعد باكية، عندما سمعت بشأن والدي ... ابتعدت عن المقعد وخطوت خطوة أخرى باحثة عن مقعد شاغر يستطيع أن يحملني

وخطوة أخرى وأخرى وهكذا، ولكن كلما ابتعدت أكثر يرتفع صوت بكائه أكثر، لم أتحمل الأمر، شعرت بأنني لابد أن أتدخل، أدرت قدمي وتوجهت إليه، جلست بجواره على المقعد الممتد، ولكنه لم يشعر بوجودي.. لقد كان مندمجًا في البكاء، عاد عقلي يطالبني بالانصراف مرة أخرى؛ فيجب ألا أتدخل بخصوصياته، سأتركه كما تركني الجميع أناقش أموري براحة كبيرة مع البحر، حاولت أن أنصرف بعيدًا عنه لكن لم أستطع.

لم أشعر إلا بيدي قد اقتربت برفق بالغ لتربت على ظهره منبهة إياه؛ وفي محاولة لمواساته مددت يدي التي تحمل المظلة إزاءه، ولكن سرعان ما شعرت بما فعلته

عندما أحيا وجهه بعد أن كان يدفنه في راحتيه؛ رفع رأسه وقد لاقت سهام عينيه التي استحال لونها إلى حمرة الدماء سهام عيني التي انحرفت بعيدا للتفادى منها ..

- أبى!!

"لون بشرته البيضاء الممزوجة باحمرار، نفس لون عينيه "البنية" نفس أنفه الطويل الممشوق، نفس لحيته التي كان يحب دومًا أن يجعلها خفيفة إلى حد ما"

صورة مشابهة لأبي في شبابه قد تجسدت في ملامحه، لولا الندبة التي ظهرت واضحة في جبينه، لأقسمت إنه هو، لقد وقفت كالبلهاء إزاءه، وفتحت فمي واتسعت حدقتا عينيه ...

توقفت شهقاته، وانقطع سيل بكائه ومد يديه ليرد المظلة إلى يدى التي بقيت جامدة وهي ممدودة باتجاهه لم تنبهني إلا قطرات المطرالبَرِدَة التي لامست وجهي، وكأنها تنبهني إلى موقفي؛ فأسرعت قائلةً بنبرة قد نال منها الارتباك:

- أنا آسفة ...

كنت أظنك شخصًا ينتظرني ...

هرولت مبتعدة، أتمنى لو تبتلعني الأرض أو تلتقطني السماء، ما يهم أن أختفى الآن عنه، وبسرعة ظننت أنني سمعته ينادي أم أن هذا ما كنت أتمناه أن يفعله ..

إن رؤيتي لوجه أبي حقيقيًا أو أقرب جدًّا إلى الحقيقة؛ ما كنت أتمناه أن أسمع اسمى من بين شفتيه مرة أخرى ...

اجتزت الحاجز الذي يفصلني عن الطريق الرئيس وثبًا تقريبًا، توقفت قليلًا لكي تستقلني الحافلة لكن لم تتوقف أي حافلة، كان علي أن أمشي؛ كنت التفت

كثيرا خلفي، وكأنني أنتظره أن يلاحقني لأراه مرة أخرى ... لأرى أبي القابع هناك في ملامحه، ولكن بلا جدوى ...

صوت الأمطار التي تعاقبت على مظلتي شوش تفكيري كثيرًا، حتى أنني استطعت أن أصل إلى منزلنا دون أن أشعر بالمسافة التي قطعتها حتى وصلت.

حاولت أن أمنع نفسي من تلك الأفكار التي تدور في عقلي، ولكن أخفقت في كل مرة حتى اكتفيت من المحاولة واستسلمت لتلك الذكرى الجميلة التي منحتني لقاء أبي من جديد، ملامحه تدور في ذهني، صوته أعتقد أنه فقط من صنع عقلي؛ لا يزال يتردد في أذني ... ومن شدة غفلتي نسيت أن أحضر ما طلبته خالتي من مستلزمات ضرورية؛ لم أتذكر إلا حين صعدت درجات السلم، وصرت إزاء باب الشقة تقريبًا، أدرت المفتاح ببطء للدخول خفية دون إزعاج أحد، وأنا أفكر في العذرالذي سأخبر به خالتي حينما تسألني، فهي أخبرتني أنها تحتاج أشياءها للضرورة، وعلى أمل ألا تخرج لاستقبالي كعادتها عندما تسمعني أفتح باب الشقة.

- نجمة .... نجمة هل وصلتِ؟؟
- نعم، ياخالتي.
- لقد قلقت عليكِ للغاية، لماذا لم تجيبي على هاتفك؟!
- هاتفي ..!! لكن .. لم أسمع صوته مطلقًا.

أخرجت الهاتف من حقيبة الظهرالتي كنت أحملها وقد نفذت بطاريته ...

- هل وصل أحمد ورنا من المدرسة؟
- نعم، لقد تناولا طعامهما ونامَا قليلًا.
- كيف كان امتحانهما اليوم؟
- لقد كان جيدًاجدًّاعلى حد قولهما.
- الحمدلله ... سأُبدل ملابسي وأساعدك.
- لا، لقد انتهيت.
- دعينا نتناول الطعام معًا.
- حسنا .. سأُبدل ملابسي سريعًا، وآتي.

وضعت هاتفي في مقبس الشاحن، وانتظرت حتى يفتح لأتاكد من أنه يعمل،

لكن صورة أبي التي ظهرت على شاشة هاتفي استوقفتني، وجعلت عقلي يعود ويفكر فيما حدث اليوم ...

لست مدركة ماحدث حتى، ولكن قد قرأت أنه عندما تفكر في شخص كثيرا؛ فمن الممكن أن يرسم لك عقلك صورته على أي شخص يقابلك، أو يشبهه حتى .. بالتأكيد هذا ماحدث، انتبهت إلى صوت خالتي التي كانت تسعل بالخارج فتركت هاتفي وبدلت ملابسي سريعًا.

- سلمت يداكِ ياخالتي .. لقد كنت أتضور جوعًا حقًا.

- لقد قلت لكِ بأن تتناولي الفطور أولًا قبل أن تذهبي إلى الجامعة، أنتِ نحيلة وضعيفة؛ لأنكِ تهملين أمر طعامكِ دومًا.

ابتسمت إليها بعد أن داعبت وجنتيها بلطف قائلة:

- أنتم هكذا تنسبون الأمرلإهمال الطعام دومًا.

- دعكِ من هذا، لقد نسيتِ شراء المستلزمات التي طلبتها منكِ ...!!

اختلقت نسياني للأمر وندمي الشديد على ذلك:

- أعتذر .. سأُحضرهن غدًا في الصباح يا خالتي.

- لامشكلة .. كنت أود أن أخبركِ بأمرٍ مهم ما رأيك بالانتقال إلى الشقة التي أملكها في الريف؟

- ولكن لماذا؟ هل المكان يزعجك؟

- لا .. مطلقًا .. ولكن مرعمك "كامل" وأخبرنى بأن عقد الإيجار سينتهي بعد شهرين ويود أن يكتب عقدًا جديدًا، ولكن بزيادة كبيرة في المبلغ.

- ليست مشكلة يا خالتي يمكننا تدبر الأمر، وقد حصلت على عمل "سكرتيرة" في إحدى العيادات الخاصة.

- لمَ لايانجمة .. يمكنكِ توفيرالمال لنفسكِ؟

- لا، ياخالتي، لن أترك المكان الذي عاش فيه والداي.

- فكري مرة أخرى.

- أعتقد بأنه لامجال للتفكير، وبالتأكيد سيكون هذا رأي أحمد ورنا، لايمكننا التخلي عن الذكرى الوحيدة الباقية منهما.

صمتنا قليلًا ونحن نفرغ من طعامنا، اختلست النظر إلى وجهها كانت ماتزال حزينة، ربما من رأيي الذي صدمها.

حاولتُ احتواء الأمر قائلة: ما رأيك بكوبٍ من الشاي الساخن؟ هل أعد لكِ معي؟

- حسنًا، ولكن بدون سكررجاءً.

- لكِ هذا .....

دخلت خالتي غرفتها لترتاح قليلًا، وتركتني بين برامج التلفاز التي صارت مملة تقريبًا ... نصف ساعة قضيتها في ملل شديد، لم تنتزعني منها إلا قطرات المطر اللواتي تساقطت على النافذة الزجاجية فأحدثت صوتًا قويًا ... شردت في صورة والدي التي تجسدت اليوم أمامي .. كان أذان العشاء قد نفذ إلى أذني بصوت الشيخ "جعفر" فقمت لأُؤدي الفريضة، وأدرس لاختبارات هذا العام التى اقتربت.

عاد إلى بيته هذه المرة وحيدًا، قد خلت الشقة من قاطنيها واحدٍ تلو الآخر إلا هو .. لم يشعر بأنها أصبحت مرعبة الآن، يهابها الكثير من الجيران، وقد عقدوا الأحاديث بأنها تسكنها أرواح تعذب والدتي كل ليلة، فهكذا هم .. مع أي مرض نفسي ينسبون الأمرإلى الجن والعفاريت، وتلك التخاريف التي لا أصل لها.

جلست على الكرسي التي اعتادت أمى أن تجلس عليه وبدأت في طرح الأسئلة على ذاتي من جديد .. كنت أحتجزأمى هنا وحدها فكان من الطبيعي أن تَجن وحدها، تلامس الذكريات القديمة وتتجرع الوحدة، الأصعب هل أسهمت أنا في زيادة ألمها ومعاناتها؟!

ولكن .. كنت أخشى ان تُعامل كالمجانين .. كنت أخشى أن تصاب بضير من معاملتهم، ولكني لم أكن أعرف أني أدمرها وحسب، وأنا أيضًا قد احتجزت نفسي معها، قيدت روحي وروحها بالماضي المؤلم أنه كان يجب أن أغادر منذ الإنذار الأول ولكني تشبثت بتلك الذكريات التي قضيتها مع أبي، كنت أيضا أتألم لفراقه، كنت أريده أن يبقى في ذاكرتي إلى النهاية.

انهمرت دموعي التي كانت كافية لتلجمني عن الحديث، لا حاجة للأقفال، الليلة، على كل الأبواب فلم يعد في البيت سواي ...

حين تنطفئ النجوم

اشتقت إليه من جديد؛ فصورته حركت رماد حزني المختبئ في أعماق صدري وعادت أطياف الماضي المؤلمة لزيارتي مجددًا، سأذهب لزيارته، لابد أنه اشتاق لسماع صوتي .. وأنا أيضًا اشتقت إليه كثيرًا.

لقد كانت المحطة الأخيرة التي ينزل منها الركاب، لولا هذا لكنت فوت المكان لعدم تركيزي، انتهى الطريق ولكني لم أنتهِ من حديثي الذي عقدته مع عقلي، دلفت إلى العيادة الخاصة التي أصبحت أعمل بها أخيرًا، وبدأت العمل -متدربة- ليوم واحد فقط قبل أن يخبرني الطبيب بأنه يبحث عن مساعدة له في المستشفى النفسي التي تبعد بضعة كيلومترات عن منزلي، عرض لا يمكن رفضه، ضعف الراتب، وقريب من المنزل، وافقت فورًا على أن أباشر العمل فيها غدًا، أكملت العمل لهذا اليوم فقط حتى أحصل على المعلومات اللواتي تمكنني من القيام بعملي الجديد بسهولة ويسر.

كانت عقارب الساعة قد أشارت إلى الثالثة والنصف عصرًا، لاحظت "سندس" -الفتاة التي كانت تساعدني على التدرب- توتري الشديد وكثرة تحديقي إلى ساعة اليد الملتفة حول رسغي ... ابتسمت بلطف قائلة:

- جيد جدًّا حتى الآن يا نجمة، يمكنكِ المغادرة الآن وإذا احتجتِ إلى أي أمر؛ فأرجوكِ لاتترددي في طلبه.

- شكرًا جدًّا .. بالتأكيد سأفعل.

اتجهت إلى السلم بعد أن انتظرت المصعد دقائق عدة ولكن يبدو إنه سيتأخر؛ ولا أريد أن أتأخر، شعور مزدوج يداعب خاطري -الفرحة والقلق- .. أما الفرحة؛ فلأنني سأقابله حتى ولو لم أره ولكن يكفي أنه سيسمعني أحدثه، سيرى أنني ما زلت أذكره ولن أسمح لنفسي بنسيانه أبدًا، أما القلق؛ فنابع من ذلك المكان الذي سأرتاده وحيدة ... إنه مُقلق؛ موحش؛ الصمت الذي تحسه فيه قاتل، تتخيل مكانك بجوارهما يومًا ما فتشعر بقُشعريرة تسري في جسدك كله .. أنت خائف فحسب، ولكن لا داعي لجعل ازدواجية الشعور ترهقك، ستذهب فحسب كما تفعل في كل مرة ... تدفن الشعور المرهق أو تدعه يرافقك فحسب.

لا بأس فقد اعتدت عليه.

العنوان الذي منحته لسائق "التاكسي" جعله يتذمر قليلًا، وأصرعلى مُضاعفة الأجر حتى يذهب فوافقته فورًا؛ فلا أرغب في التأخر أكثر، لقد وصلت أخيرًا

أحتاج للسير بضعة أمتار حتى أصل إلى قبر أبي .. المكان موحش ومرعب فضلًا عن زيارته في الليل، إنها الأفظع! وما زالت الشمس قابعة في السماء على الرغم من تراجعها قليلًا متأهبة للاندثار ليحل محلها قمر الليل، أقنعت عقلي بأن هذا ما يرتاح به ... الصمت ....

أبي، كان يحب الهدوء أيضًا، بالتأكيد هو يشعر بالراحة الآن هذا ما أظنه، يكفي أنه بصحبة والدتي.

أفرغت زجاجة المياه التي كانت بحوزتي لري تلك الوردات التي نضجت وأحسنت في نشر العطر في المكان، يبدو أن الحارس هنا يعتني جيدًا بهم ...

استهللت حديثي معه بقراءة الفاتحة وبعض الأذكار من نفس الكتيب الذي كان يقرأ منه لأمي .. كيف حالك يا أبي؟، هل أمي أيضًا بخير؟ اشتقت إليكِ حتى أنني بدأت أتخيل وجودك، فرت عبرة هاربة من عيني فألجمت صديقاتها سريعًا، لا تخف، فلن أبكي هذه المرة فقط سأبتسم ... إخوتي بخير، لا تقلق فخالتي تعتني بنا جيدًا، وأنا يا أبي أيضًا بخير، أخبر أمي أنني رأيت منديلًا أنيقًا قد طرزته بنفسها لخالتي، وهي عروس لقد كانت بارعة جدًّا، أخبرها بأني أحبها جدًّا واشفع لي عندها، حتى تسامحني على تقصيري معها .. أنت مازلتَ في ذاكرتي حيًا، تتردد إليها .. حتى ملامحك قد بدأت تتجدد .. أحبك ...

لامست أناملي تلك الأزهار –مرةأخيرة- وهممت بأن أخرج ولكن استوقف جسدي وعقلي صوتٌ يصدر من مكان ما ...

تفحصت بعيني المكان سريعًا، لم أرَ أحدًا، تلجلجت في قراءة الآيات وترددت خطواتي الرتيبة .. لماذا أنا خائفة؟!! يمكن أن يكون الحارس متجولًا في المكان .. لا، لا ... إنه صوت بكاء ... إنه صوت أحد يبكي بالقرب من هنا، دفعتني قدمي تجاه ذلك الصوت.

فإذا بهِ شابًا قد جثا على ركبتيه ويبكي بصوت عالٍ جدًا، شهقاته تلتقى مع أنفاسه العالية، لم أتجاوز ثواني في مراقبته، ثم انتظمت خطواتي إلى المدخل الذي دلفت منه منذ قليل، أوقفت سيارة أجرة ورحلت مسرعة، عادت أطياف الماضي تناجيني، وتذكرني بتفاصيل كنت قد أوشكت أن أتخطاها وأنساها، كنت في حالة ذعر نفسي شديد؛ لأنى تذكرت أيامي الأوليات من فراق أبي، ذلك البكاء الذي يعلو منه أنا أعرفه، أذكره جيدًا

عندما تجاوزنا هذه المنطقة وخرجنا إلى طريق منتظم؛ هدأت نفسي قليلًا وقل ذعرها.. الآن، عليَّ أن أراجع كلماتي التي سأقولها لخالتي عن سبب تأخري.

وصلت إلى مدخل المبنى، نظرت مطولًا في مرآة السيارة القابعة أمام المدخل ثم استنشقت كمية كافية من "الأكسجين"، وصعدت السلم كنت تجاه باب الشقة تقريبًا، فتشت الحقيبة عن المفتاح وقبل أن أجده كانت خالتي قد فتحت الباب بالفعل؛ لابأس بقليل من اللوم على التأخير، المهم أنها مرت وقد حصلت بالفعل على ما أريد.

كان النوم في تلك الليلة صعبًا قليلًا، ولكن في التاسعة صباحًا كنت قد استيقظت من نومي على صوت رنا تدعوني للفطور، أحسست بسعادة لا متناهية لا تماشى أبدًا ما مررت به البارحة، أمعنت النظر هذه المرة في الصورة التي سكنت على المكتب المجاور للسرير وقلت: "صباح سعيد" ...

وكدت أن أكمل الحديث، ولكن إلحاح رنا قد دفعني لترك الحديث مُعلقًا إلى حين آخر، على مائدة الإفطار تحلق الجميع،السعادة التي استيقظت بها قد انعكست على أحاديثي التي مالت إلى الفكاهة بعض الشيء، قطع حديثي مع رنا -منفردًا- سؤال خالتي:

- كيف وجدتِ العمل الجديد يا نجمة؟

- "آآه"، نسيت أن أخبركم .. سأعمل في المستشفى النفسي القريب من هنا.

فقال أحمد بسخرية:

- هل تقصدين مستشفى المجانين التي على الطريق الرئيس؟

- أولًا .. إنها ليست مستشفى مجانين وكلنا معرضون لزلةٍ نفسية.

والفكرة تختلف في كيفية مواجهة المشكلات التي تقابلك، وقدرتك على تخطيها أو البقاء معلقًا بها في ذلك المنعطف إلى الأبد، قد تكون تعاني مشكلة نفسية، ولكنك لم تدرك بعد؛ فحاول ألا تستهزىء بهم أبدًا.

ثانيًا: نعم، .. إنه هو.

- دعكِ منه يانجمة .. هل ستتعاملين مع المرضى فيها؟

- لا أظن ذلك يا رنا، إنها وظيفة بعيدة كل البعد عنهم.

- جيد، أنها قريبة من البيت.

- نعم، كما أن الراتب كبيرموازنة بما سبق، ولكن هناك مشكلة يسيرة .. سأتأخر قليلًا في العمل؛ لأنني سأحصل على المدة المسائية .. حتى أستطيع متابعة دراستي في الجامعة، الساعة الحادية عشرة تقريبًا ستكون نهاية المدة.

- لا، ... لا، يمكن ..

- لماذا يا خالتي؟ سأطلب من أحمد أن يأتي ويستصحبني .. هل يمكنني أن أذهب اليوم فقط، وأتناقش معهم في موعد الخروج؟، فأنا أعرف طبيبًا يعمل هناك، هو من عرض عليَّ الوظيفة، يمكنه أن يساعدني إذا طلبت منه ذلك، رجاءً.

- دعيها اليوم فقط ياخالتي ... ويمكن لأحمد أن يستصحبها إلى البيت.

وافقت على مضض، وقد تركت للقلق مجالًا؛ ليلتهم ما تبقى من عقلها قائلة:

- إذن، اليوم، فقط، لنرى ما يمكن فعله.

- شكرًا يا خالتي ..

سأدخل غرفتي لأدرس قليلًا قبل الذهاب للعمل.

- موفقة يا حبيبتي ....

الفصل السادس

سعادة ما وراء اللقاء

بقميص أبيض ناصع بأزرار سوداء بارزة وسروال أسود يتسق مع القميص وساعة فضية عتيقة، كان قد احتفظ بها عن والده ... غرز أصابعه في شعره، أخذ يسحبه للخلف ليبدو شابًا كلاسيكيًا عتيقًا .. هكذا استعد "مراد" للخروج إلى المستشفى التي يعمل فيها.

أغلق باب الشقة الذي تساقط عنه الطلاء وهذه المرة بدون القفل، وتحرك بخطوات واثقة نحو سيارته السوداء التي يصفّها على بعد دقائق من منزلهِ، دلف إليها ثم نظر إلى المرآة بعينين أظهرتا الطيبة والتواضع والسعادة الغامرة، وأدار محرك السيارة بعد أن تأكد للمرة الأخيرة وجود الحقيبة التي وضعها بالأمس على المقعد الخلفي؛ فهي تحمل متعلقات والدته التي سيوصلها لها فى المستشفى هذا المساء بعد الانتهاء من عمله ..

ولكن ما سر الابتسامة التي طلت من عينيه توًا؟

كان بالأمس يبكي عند قبر والده؛ لأنه ترك الأمانة التي كلفهُ بها، وعندما ينام يراه في أحلامه شابًا جميلًا، قد تقدم نحوه بخطوات واثبة، لا يستعمل كرسيه المتحرك الذي لزمه طوال حياته بذقن ناعمة بدون لحية، ووجه ناصع لامع وابتسامة واسعة تغمرك بالسعادة وحدها.

يمسح على رأسه برفق بالغ ويضمه إلى صدره، ويمنحه نظرة تحمل كل معانى الطمأنينة والرضا .. ألا يكفي هذا؟!!

وهى أول مرة يراه في حلمه منذ رحيله قبل عشرة أعوام، يرى والده سعيدًا في مكانه يمشي وحده، وقد استغنى عن كرسيه، وشعره الذي مسح عليه ... لازال يشعر بدفء يديه ودفء جسده عندما اقترب منه، استيقظ بسعادة كان قد نسى مذاقها كما لو أنه لم يتذوق مثلها من قبل، وصل إلى المستشفى وعلى الرغم من الاقتطاع (خصم من مرتبه) الذي حصل عليه نظير تعديه على المريض فإن هذا لم ينجح في تغيير سعادته، وكأنه قد وأد بقية المشاعر في مهدها، وترك

السعادة وحدها تنمو معه، كانت الساعة الثامنة والنصف عندما تلقى رسالة من"عادل" بأنه ينتظره فى المستشفى للقاء والدته مجددًا.

أربعين دقيقة كانت المدة التي قطعها مراد بسيارته؛ ليصل أخيرا إلى حيث تسكن والدته حديثًا ... كان "عادل" ينتظره عند البوابة كما اتفقا.

- انتظر قليلًا هنا.. سأحضر المفتاح وآتي فورًا.

أومأ إليه ... على أن يلفظ كلمة، وترك لعينيه المجال للتجول بين أروقة المكان الذي كان يخافه من قبل ليس لعينيه مطلقًا؛ بل إنه كان يفضل أن يقضي أيامه كلها بين جدران المستشفى يعمل ... على أن يعود إلى البيت حيث والدته التي لاتكف عن اتهامه بقتل والده وأنه يسعى لقتلها.

أضواء الأروقة خافتة حتى لاتثير القلق للمرضى ...

لفت انتباهه وقع خطوات "عادل" قادمة، فاتجه نحوه في بطء يحاول ألايفسد جولة عينه بتسريع المشهد، فتوقف عند إحدى الغرف التي فتحها، وظهرت على وجهه ابتسامة إعجاب خفية، تقدم نحوه ليرى لمن يمنح تلك النظرة، كانت مسافة صغيرة لا تتخطى نصف متر قد تركها تفصل بينه و "عادل" الذي لم يشعر به وإنما أطلق لأُذنه البقية ..

صوت رقيق ملائكي قد صدر من إحداهم قائلةً:

- عفوًا.. (دكتورعادل)، ولكن هل يمكنني الذهاب الآن؟

- لا مشكلة، ..ولكن تأكدي من إنهاء الأوراق كاملة، وأوصليها لمكتب الطبيب "رائد"، إنه في الطابق الثاني واحصلي على توقيعه وبعدها يمكنكِ الذهاب.

- هل المكان هنا أفضل من العيادة؟

- أعتقد بأنه أفضل.. أشكرك لتيسيرالمواعيد لي.

- أنا لم أفعل شيئًا، ولكن ... غريب! لقد رفض الكثيرون العمل هنا خوفًا على أنفسهم من المرضى المجانين.

- أنا لا أرى ذلك مطلقًا، كما إنهم ليسوا مجانين، إنهم مجرد مرضى قد تأذت نفوسهم لسببٍ ما.

لم يسمع بقية الحدث.. كانت آخر كلماتها هي ما دارت في ذهنه

"مرضى قد تأذت نفوسهم" فحسب، انتفض جسده وكأنها كانت رصاصة قد أطلقها فمها لتستقر في قلبه، هل كان مخطئًا عندما ترك والدته وحدها؟.. إنهم مجرد مرضى قد تأذت نفوسهم ...

انتبه مجددًا عندما وجد "عادل" يمسك بيده ويهزه بقوة:

- ماذا حدث؟؟

- لاشيء ... فقط، شردت قليلًا.

- بماذاكنت تفكر؟ كنت سعيدًا منذ قليل، ماذا أصابك؟

تهرب من نظراته وتركه قائلًا:

- هيا، أريد لقاءها.

- انتظر! ليس من هذا الاتجاه، سنستخدم المصعد.

كان عادل قد تقدمه بخطوتين تقريبًا؛ ليفسح المجال إزاءه حتى وقف أمام باب طلاؤه أبيض، ظهرت فيه خدوش لا يراها إلا الذي يدقق النظر، وكأن قِطًّا ما قد دخل متخفيًا وأحدثها عمدًا.

- "مراد" ... "مراد"

- نعم..

- أعطني الحقيبة التي أحضرتها.

- تفضل.. ولكن ألا يمكنني تقديمها لها.

- لا، إنها نائمة الآن، سأعطيها للممرضة وستتولى هى الأمر يمكنك رؤيتها من هنا، لا تحاول التقدم أكثر حتى لاتوقظها ... سأجري مكالمة، عندما تنتهِ أخبرني ...

- دقيقتين فقط ...

الأولى كان فيها شعور الطمأنينة بأنه قد قام بالمصلحة لها إنها الآن لا تتألم، حتى إنها استطاعت أن تستغرق في النوم، ولم تكن كذلك من قبل.. والثانية.. تؤرقه وتلومه على تركه أمه وحدها، تصفه بالأنانية، تعارك شعوران بداخله؛ فقرر الهروب، وترك الأمورعلى حالها.

استدعى المصعد وكاد أن يذهب وحده لولا عادل الذي رآه ...

- مراد، ... مراد، ... إلى أين تتجه وحدك؟

- سأغادر هل تحتاج لشيء؟

- نعم، ..!! لقد أخبرتهم في البيت بأنني سأتأخر قليلًا، لنذهب معًا أريد رأيك في أمرٍ ما.

- حسنًا..

- لنستخدم السلم الخارجي هكذا سنصل إلى السيارة أسرع، أنا أعرف مكانًا يمكننا الجلوس فيه، إنه قريب من هنا، أمضي في هذا الطريق المستقيم ثم انعطف يمينًا.

كانت ملامح مراد جامدة، ولكن أنفاسه متصارعة، والغريب هو قدرته على كبح مشاعره وإظهار اللاشيء، كان الجو مشحونًا بالتوتر الذي انطلقت فتيلته في المستشفى منذ قليل.

- هنا يا مراد، رجاءً..

قد انحرف بسيارته بعنف واضح حتى كادت أن تقتلع الرصيف

- حسبك!! .. حسبك يا مراد! .. ما الذي يزعجك هكذا؟!

اكتفى بإغلاق عينيه، وقد أراح رأسه على المقود وهو يزفر مطولًا.

- أرجوك، يا مراد، أطلق لِجام فكرك ودع الأمور تسير كما هى عليه، صدقني، أنت تفعل الصواب، لم تكن لتستطيع أن تعالجها وحدك في البيت وأنت تخفي كل مايؤذيها، فقط ... تضع لها الطعام والشراب وترحل تاركًا إياها ساعات، وفقًا لظروف عملك إنها ليست قطة أو حيوان أليف، يمكنك الاحتفاظ به لنفسك فقط؛ بحجة أنك تحميها من الضرر، أنت فعلًا كنت تحميها ولكنك في نفس الوقت تعذبها.

(الزهايمر) يمكن تحمله، ولكن قد وصلت لمرحلة متطورة من الفصام لا يمكنك التعامل معها؛ حتى نحن نتعامل معها بدقة بالغة، إنها الآن تستطيع النوم بهدوء والاستمتاع في الصباح، وترى الشمس وتستنشق الهواء بِحُرية، لقد جربت بنفسك ولم ترَ نتيجة، أرجوك حرر نفسك، وفك قيود روحك أيضًا، كما فككت قيود والدتك ... امضِ قدمًا؛ فالحياة لن تنتظرك.

نظر إليه بعينين قد اغرورقتا بالدموع قائلًا:

- شكرًا لك، ياعادل، ... شكرًا ...

انفرجت شفتاه قليلًا لتكشف عن أسنانه قائلًا:

- توقف عن البكاء فقد خرجت للاستمتاع قليلًا، وليس للبكاء، يكفى صراخ وبكاء مثل الأطفال في البيت.

الفصل السابع

لقاء متجدد

بعد أن أدينا صلاة الجمعة فى إحدى مصليات النساء، بدأت رحلتنا القصيرة التي قررنا قضاءها في يوم إجازتي..

- مارأيكم أن نتناول الطعام خارج البيت ... اليوم؟
- اقتراح جيد جدًّا، ولكن هل تعرفين مطعمًا جيدًا؟
- نعم، هناك مطعم جديد.. ولكن بعيد قليلًا.
- إذن.. هل يستحق التجربة؟
- أعتقد ذلك، فأنا أسمع عنه كثيرًا هذه الأيام.
- حسنًا ... أوقف سيارة أجرة يا أحمد.
- سأُخبر خالتي بأننا سنتأخر قليلًا يا أصدقاء.
- وأخبريها أيضا يانجمة، بأننا سنتناول الطعام خارج البيت، اليوم، حتى لاترهق نفسها في إعداده.
- حسنا، سأُخبرها، يا رنا.

كان الطعام يستحق التجربة فعلا أو كانت الصحبة جيدة، فجعلت الأمريبدو رائعًا ...

تحلقنا حول مائدة الطعام، تجمعنا السعادة التي أدت دورها في استرجاع الذكريات السعيدة التي تمثلت في طفولتهما البريئة، انتهينا من الطعام وجعلنا الأمر يسير على طريقة أبي المعتادة، السيرمعًا فى الطريق المقابل للبحر، أما عن رنا وأحمد فلم يستمتعا بمشاهدة أمواج البحر، ولم يريا فيها المتعة التي تجذبني، فقررا مشاهدة أحد الأفلام في "السينما" التى تقع على الطريق المقابل، لم أفضل صالات العرض، من قبل تلزمك بمكان محدد، لايمكنك مناقشة أحداث الفيلم حتى لاتزعج بقية المشاهدين، والأهم من هذا المكان المغلق أنه لايمكننى تقبل هذه الفكرة، أفضل مشاهدة التلفاز والاستلقاء على أريكتي الدفيئة وحسب ... انتظرتهما على المقعد الذي اعتدت عليه.

مقعد صغير نوعًا ما يسع فردين تقريبًا، وفسحة إضافية لا يمكن إنكارها، وقد كُسرت قليلًا أحد أطرافه الخراسانية، وعبثت به أيادي المخربين، فكتبوا عليه أسماءً وبعض الجمل التي قد اختلطت ببعضها، فأعجزتك عن فهم ماهيتها، وراقنى رؤيتي للبحر الشاسع وجماله المُلفت للعيون التي تعمقت في حركاته، وكأنه يتسكع بتدلل كبير ... تلك الأمواج المتلاطمة تحييني ... هذا البحر العريق يبتسم لي، نسمات الهواء التي تلفحني تشعرني بالطمأنينة، والراحة، هذا النسيم الذي يخترق أنفي ليملأ رئتي، ليس بالهواء فحسب بل بالطاقة المطلقة الكفيلة أن تُحيي نفوسًا محطمةً حقًا ...

وبسمات إخوتي اللواتي يعلون وجههما تزيدني اطمئنانًا، وارتياحًا إلى حد ما، أشعر بامتلاء طاقة الأمل بي مجددًا، أشعر بالراحة التي لم ألقَ مثلها منذ زمن كبير، يبدو أنني بدأت أستعيد طاقة أملي التي فقدتها منذ وقت طويل ...

مرت ساعة وعشرون دقيقة .. دققت النظر في الهاتف مرات عدة، ليتأكد لى أنهم لم يتصلا بعد، بخلاف خالتي التي كلمتني ثلاث مرات، تخبرني في كل مرة بألا نتأخر.

كنت على وشك إغلاق أحد الكتب التي كان يمتلكها أبي ...

والتي لم أَمَلّ من قراءتها للمرة الثالثة إلى الآن، فقطع تفكيري صوت أحد يستأذن بالقعود على نفس المقعد الذي أجلس عليه، رفعت رأسي في محاولة للإيماء إليه.

فالتقت عيناي بعينيهِ، ثم نظرت بسرعة إلى حيث كنت أنظر، لا أكاد أصدق عيني

مر شهرن تقريبًا منذ أن رأيت هذه الهلاوس آخر مرة، اختلست النظر مرة أخرى من طرف خفي، إنه هو بالفعل لقد دققت النظر في عينيه، وملامحه ... كل شيء كما هو، المختلف أنه لايبكي ... يا ألله، كيف له أن يشبهه هكذا؟!!

انتبه إلى نظراتي البلهاء التي تسلطت عليه، حتى أن الكتاب سقط من بين يدي، ولم ألاحظه ... حتى تلعثمت في الكلام عندما مد يديه؛ ليضع الكتاب بجوارى قائلًا:

- عفوًا .. لقد قطعت قراءتك.

- لا، كنت على وشك المغادرة الآن.

أصاب الارتباك نبرة صوته قائلًا:
- هل رأيتكِ من قبل؟؟
- لا أظن ذلك .. هذه أول مرة أراكَ.
رنّ الهاتف فكان كطوق النجاة الذي سيلتقطني من عرض البحر، عدلت من وضع نظارتي الشمسية القاتمة على عيني في محاولة لإخفاء وجهي؛ وابتعدت سريعًا، وأنا أدعو الله ألا يتذكرهذه المرة ..
- السلام عليكم .. أحمد أين أنتما؟؟
- نحن ننتظرك إزاء الباب الآن.
- حسنًا .. لاتتحركا سآتي فورًا.

أظهر مراد علامات التعجب من هروبها، وهو يعلم أنها هي من أعطته مظلتها حينما كان يبكي يوم ترك أمه وحدها في المستشفى ... وهو يعلم جيدًا أن تلك المظلة كانت لوالده وأنه أعطاها للفتاة في "المترو" حينما استقله أول مرة؛ تراقص الشغف في عينيه ولم يدرك أنها عبرت توًّا سياج قلبه ... انتبه إلى الدفترالذي أمسكه بإحكام بين قبضتيه
وفتح إحدى صفحاته التي كتبتها أُمهُ بحبرٍأحمر، وكأنه دماء من قلبها سطرت بخطِ منمقٍ وساحر:
"لا زلت تركن في قلبي .. لا زلت تؤنس وحشتى وصمتى .. كلما ضجرت وأخطأت كنت أجدك ساكنًا صامًتا .. لم تفارق تلك الابتسامة شفتيك".
كتبت تحتها بخط يحمل الألم
"مرّ عام ... ولم تمر لحظة بدونك".
لامست أنامله الصفحات، واستدعته الحروف التي كتبتها مبعثرة،
ليست بعادتها المنمقة كتبت:
"لقد تم اليوم النطق بالحكم، لايوجد استئناف أو حتى طعن القضية، التنفيذ فحسب هو الشيء الذي يسعون لتحقيقه و أنا الضحية ....

نعم، أنا الضحية... كنت كذلك لعشر سنوات، وكنت أعلم أني الجانية في نظرهم

عذبتني التهمة، كما لو أنني من قمت بالجناية حقا، حكموا على عيني بالدموع أبد الدهر، وعلى قلبي بالوحدة حتى يشيخ ... سأدع روحي تستريح، أدفنها بين التراب فربما حبيباته الناعمة تكون أرحم من قسوتهم الظالمة، أما الظلام؛ فكنت أخشاه، ولكن لا تخف، فلن يكون ذلك أظلم من السواد الذي مزق قلبي بنيرانِ خلفت رمادًا أسودَ، لم يسيطر عليه مسيطر ...

إنها النهاية يا عزيزي، ... النهاية"

أغلق الدفتر واضعًا يده على صدرهِ الذي أصابه الضيق الشديد، لم يكن يعلم كل هذا، لقد كانت تحلم بالموت في كل ليلة، ولكن هل مواجهته كانت بهذه السهولة؟!، لقد ماتت روحها مع موت أبي، وبقى جسدها عالقًا يتعذب بلا روح، كانت تعيش حياته وليست حياتها، وعندما أذن الله لروحهِ أن تستريح؛ بقيت روحها معذبة بين عالمين لا تستطيع ولوج أيّ منهما، أسند ظهره حتى التصق تمامًا بقطعة أسمنتية مسطحة، وأطلق رأسه في عنان السماء، كانت السماء تستقبل الليل وتودع النهار في مشهد مهيب انعكس على وجه البحرالذي لونته أشعة حمراء ممزوجة بأخرى برتقالية؛ لتغرق الشمس ويرتفع القمر.

وكم تمنى لو يغرق معها كل ما يؤرقه بلا عودة في صباح تالٍ!، كطفلٍ صغير دعته أصوات الأمواج ونسيمها الحاني إلى نعاس سعيد، لم تبرح بضع دقائق حتى انتزعته منها أبواق السيارات التي كانت تزدحم من خلفه في مشهد لايتصل أبدًا بما يراه إزاءه؛ عقد قبضتيه وزفر مطولًا قبل أن يقوم من مقامه هذا، ولكن اللون الأحمر المتألق على غلاف الكتاب الذي سقط منها قد جذبه إليه

فإنحنى لالتقاطه، وقد ارتسمت ابتسامة تلقائية على وجهه بمجرد رؤيته ...

أتمنى أن يكون هنالك لقاء جديد ....

لم أستيقظ إلا عندما حل الصباح، وجدت خالتي تقعد على الكرسي المجاور لسريري، وقد أراحت رأسها إلى الخلف، مغمضة عينيها، يبدو أنها غفت وهي

تحاول خفض حرارتي العالية، ورنا تمسك بيدي وتنام بجواري وأحمد ينام على الأريكة الصغيرة الموجودة في غرفتي.

فتأوهت بصوتٍ ضعيف لم يسمعه أحد سواي، حركت يدي لأفلتها من بين قبضتي رنا التي أحكمتهما حول يدي فانعقد حاجباها وتنهدت تنهيدة ناعمة، ثم عادت ملامحها لتسترخي مرة أخرى وقد سبحت في أحلامها من جديد، انتبهت خالتي إلى استيقاظي، فهمّت بلمس جبهتي محاولةً لتفحص حرارتي، لتجدها هدأت قليلًا عن البارحة، ابتلعت ريقي الجاف لجفاف حلقي، وأخبرتها أنني بخير.

حاولت الاعتدال في جلستي لكنها منعتني حتى تحضر الفطور والدواء إلى سريري.

غادرت هي الغرفة، وخرجت بهدوء أيضًا منها حتى لا أوقظ أحمد أو رنا من نومهما، كانت الساعة تقترب من السابعة تقريبًا، لم أستطع أن أفلت من إصرار خالتي على استصحابي إلى المستشفى للاطمئنان على حالتي ...

كانت الساعة السابعة وخمسًا وثلاثين دقيقة؛ عندما وصلنا إلى المستشفى وتحديدًا تجاه الغرفة التي يتم الفحص فيها، دلفت وحدي بعد منع الممرضة الدخول إلا للمرضى، جلست على الكرسي الخشبي الذي يقع تجاه مكتب خشبي صغير مطليًا باللون "البني" يخالطه الأحمر، لم أجد أثرًا لأي طبيب بالداخل، حتى فتحت الممرضة الباب على حين غفلة، فأصابتني بذعر جعلني أنتفض من مكاني، واكتفت هي بالقهقهة وهي تخفي أسنانها وراء يدها قائلة: الطبيب قادم ... فهو يجري اتصالًا هاتفيًا.

ثم أغلقت الباب وهي مستمرة بضحكاتها المستفزة، ثوانى معدودة وفتحَ الباب مرة أخرى ولكن كان الطبيب هذه المرة، كنت مازلت أفرك عيني من آثار الصداع الذي زاده إفزاعها لي، أما الطبيب؛ فقد استقر على الكرسي المقابل لي. وما إن نظرت إليه حتى تيقنت بأن ما كان أمس ليس بهلاوسَ رسمها عقلي، ويبدو أنه أيضًا تفاجأ بحضوري،

بدا هذا واضحًا من عينيه التي ثبتها على وجهي، ويديه المعلقة في الهواء يدفع بها نظارته لتصير تجاه عينيه تمامًا، انعقدت الكلمات في حلق كلٍ منا، والصمت بيننا يحمل الكثير من الكلمات التي امتنعت عن الخروج، وأعتقد أن حرارتي وصلت حينها للأربعين وربما أكثر، قطع الصمت المطبق الذي خلقناه توًا انفراج

الباب مرة ثالثة؛ لتظهر خلفه طبيبة عرفت إلينا نفسها بأنها متدربة جديدة، أشار لها بالقعود بالكرسي المقابل لي وتبادلا حديثًا لم أسمع منه حرفًا، ثبتُّ نظري على الساعة التي كانت في رسغي

وأنا لا أنظر إلى الوقت ... مطلقًا ...

رفعت رأسي لأجيب على سؤال طرحه عليَّ وكانت كلتا عينيه قد أطلقتا سهامًا تعرف مقصدها وكأنني شخص يشتاق إليه ... وكأنه ينتظرني ..!!

كم تمنيت لو أنظر إلى صورة أبي فيه مطولًا!، وكم تمنيت لو كان أبي حقًا وليس مجرد شخص يشبهه!، تسارعت دقات قلبي، كادت تهشم أضلعي.

قطع تفكيري الذي بلغ ذروته يدُه البرِدَة التي لامست جبهتي لتتفحص حرارتي

لاحظ توتري فتراجع سريعًا وهو ينظر إلي، ثم جذب ورقة ليكتب بعض الأدوية، حاول أن يبدو ثابتًا، ولكن عيناه أبدتا العكس تمامًا، طويت الورقة مرات عدة دون أن أنظر إليها ووضعتها في حقيبتي، وخرجت إلى خالتي مسرعَةً ... أخبرتها بأن الأدوية التي كتبها يوجد منها في المنزل، فتحركت بهدوء وكأن توقيع الفحص يكفي للشفاء، وليس الدواء.

وصلنا إلى المنزل وكان الأمر كافيًا ليستريح الجميع إلا أنا؛ ... أنا التي لم تزدني تلك الزيارة إلا قلقًا وإرهاقًا، التقطت الورقة التي دون فيها اسم الدواء، ليتأكد أنه هو نفسه الذي أحمله في يدي، ولكن ما يزال هناك ما دونه خلفها بخط مرتعش كتب:

"لقد أسقطتِ كتابكِ آخرمرة، أخبريني أين تريدينه وسأتركه لكِ ... "مراد الإمام" ودون رقمه.

التقطت حقيبتي التي وضعتها على المكتب عندما وصلت فتشتها باحثة عن الكتاب، فلم أجده ...

حمقاء!! .. أنا حمقاء!!

لقد كان كتاب أبي المفضل.

اقتحمت خالتي الغرفة، فانتفض جسدي مرة ثانية هذا اليوم فزعًا.

- آسفه يا نجمة لم أقصد إخافتك

- زممت شفتي بقوة واختلقت ابتسامه باهتة، لا بأس، لقد أصبحت عادتي أخيرًا.

- الطعام مُعد
- حسنا، سألحق بكِ ...
لم أستطع أن أخفي ذعري، وارتباكي في إخفاء الورقة في الحقيبة سريعًا.
ماذا سأفعل الآن؟؟ أأترك الكتاب؟ أم أتصل به؟
سؤالان يعاركان إجابتين متضادتين لكلِ منهما، في معركة لم يسقط فيها ضحية سواي
وانتهت بالاستسلام لكلِ منهما، أمسكت بهاتفي ودونت الرقم ولم تمر ثانية واحدة حتى مسحته،تكرر الأمر مرات عدة لم أحصها حتى أغلقت الهاتف، وقمت لألبي نداء خالتي الثالث، ربما .
لكلِ منا طريقة في التعامل مع قراراته، وأنا ألجأ إلى البحر ليس لاتخاد قرار بل لإراحة قلبي من عبء الاختيار، ربما .....

عندما وصلت للبحر

وجدته يجلس على نفس المقعد الممتد ويحدق إلى البحر طويلًا، وكأنه يلتقط له "فيديو" مصورًا ولكن بعينيه ... البقاء أم الذهاب؟ خياران تعاركا من جديد داخل عقلي
وكأنني قد جعلته مسرحًا للقتال، وفي كل مرة أكون الضحية، لم يقرر عقلي هذه المرة
كانت قدماي هى التي ساقتني إلى حيث يجلس ...
- السلام عليكم.
- وعليكم السلام ... أهلا بكِ.
كنت متأكد أنكِ ستكونين هنا، هل أنتِ بخير الآن؟
- أجل .. أنا بخير .... كنت .....
- أنا آسف على قطع حديثك، ولكن هل يمكنكِ إسداء خدمة لي؟
- تفضل ... كيف يمكنني مساعدتك؟
لخمس دقائق فقط، سأجلس على المقعد البعيد هناك، وأشار بيديه إلى مقعد يبعد عن هذا ربما بمتر ونصف المتر، وأنتِ تنظرين إلى تلك الصخرة التي يقف عليها طائر هناك،
هل يمكنكِ رؤيتها؟

- نعم يمكنني ذلك ... ولكن لماذا؟
- من أجل أن أمنحكِ كتابكِ مرة أخرى، من فضلك، .. إنه لأجل الكتاب فقط.
أومأت إليه.

ثم أطلقت بصري وتفكيري نحو البحر، هذا ما تعشقه عيني، وينطلق فكري سابحًا فيه، ولكن لم يستطع صوت الموج الذي لم يبرح يشتت فكري أن يشتته هذه المرة، بل بعثره كما يبعثر الموج كومة من الرمال في يديك، خمس دقائق بالضبط، لم أتحرك فيهن ، فقط ركزت على البحر، وتركت عقارب الساعة تمنحه الوقت، وتمنح عقلي الراحة المستحيلة.

- "آنسة" نجمة .. شكرًا جدًا على وقتك، هاهو ذا الكتاب .. وقد انفرجت شفتاه لتظهر ابتسامة مشرقة.
- إذن، لماذا أنا التعيسة؟ لحظة، .. ماذا كنت تفعل في هذا الوقت؟
- كنت أحتفظ بذكرى جميلة.

انتظرته ليوضح الأمر، لكنه لم يعقب

اكتفى بتلك الابتسامة التي علقها على وجههِ، فعقدت حاجبي معلنة التساؤل هذه المرة،

ولكنه لم يستجب لنداءات عيني اللواتي أطلقتهما، كما ساقتنى قدماي نحوه دون استشارة عقلي رحلت أيضا دون استشارته؛ ابتسمت رغمًا عني، لقد ظفرت بكتاب كنت أظن أنني سأفقده للأبد، لكن فقدت تحكمي في قلبي الذي ارتفع صدى دقاته في أذني، وعقلي الذي توقف به الزمن، فلم يعد يستجب.

تركته ورحلت ومازالت تلك الابتسامة المشرقة تزين وجهه ثم تحدث بصوت لم يسمعه سواه، سأكون هنا دائمًا حتى وإن لم أكن حاضرًا بجسدي، أعدكِ بأن أكون حاضرًا بروحي، سأكون في نفس المكان الذى آتيته باكيًا منكسرًا، وخرجت منه باسمًا مضمد الجراح مصطحبًا بسمتكِ كدواءٍ، أطال نظره إلى الورقة التي أمسكها بقوة،

ثم تنهد تنهيدة طويلة ألقت بكل ألمهِ بعيدًا.

الفصل الثامن

بدأت تبتسم

(بعد مرور شهرين ونصف الشهر)

لقد مرت الامتحانات بسلامٍ أخيرًا .. ما أصعب ذاك العام الدراسي ..!!

آخر مقابلة مع الطبيب "مراد" شبيه أبي، غيرت ترتيبات عقلي كليًا، شغلتني ليالى كثيرة، جعلت التركيز أمرًا يستحيل تحقيقه برفقتها، لولا خالتي التي أصرت على أن تبيع المنزل الذي تملكه في الريف لكنت واصلت العمل مع الدراسة؛ لم أره منذ ذلك الحين

أعترف أنني تمنيت لو أراه مرة ثانية، كثيرًا، ذهبت إلى البحر وانتظرته في نفس الموعد

الذى كان يظهر فيه، لكنه لم يأتِ في أي مرة، ولكن صورة أبي ماتزال منحوتة في قلبي

ولن تغيب أبدًا من ذاكرتي ... مادمت حيةً.

لا أعرف، هل أحببته؟ أم أن ملامحه المشابهة لملامح أبي هو ما جذبنى إليه ..؟

ربما .....

لا أدري .....

لقد اجتزت هذا العام، وفى حفل التخرج، تمنيت لو أرى أبي في تلك الزاوية التي يكون فيها الآباء، تمنيت لو يلقي كلمة على المنصة، تمنيت لو يصفق بشدة حين يسمع اسمي تمنيت وتمنيت .... كتبت كلمة يمكنني إلقاؤها على المنصة وأنا أتسلم شهادة تخرجي، أغمضت عيني واستنشقت كمية وفيرة من الهواء، وملئت رئتي، وأخرجت الهواء ببطء شديد، استعدت شجاعتي، حبست دموعي المسكينة، وزفرت بقوة تزيح دموعي بعيدًا،

عندما فتحت عيني لأبدأ حديثي وإلقاء كلمتي، لم ترى عيني وسط الجموع الحاشدة

إلا هو ..

نعم، إنه هو "مراد"
رؤيته قد أنستني اللوم الذي حمله قلبي له، لماذا غاب كل تلك المدة؟؟
حتى كدت أظن أنني كنت أتوهمه فحسب، لقد أتى لم يتركني، ظل أبي في الوقت الذي تمنيت أن أراه فيها ..؛ فقلت كلماتي ثابتة، قلتها وعيني لم تفارقه ... قلتها .....

أشكر الله ....

وأشكر أبي العزيز
صاحب الهمة التي لاتنكسر
صاحب القلب الكبير
صاحب النفس العزيزة
صديق دربي
المخلص دومًا وأبدًا

أبي .....

الذى لم تفارقني روحه طوال سنيني
الذي لم أتعثر يومًا إلا مد يده ليساندني
الذي ملك قلبي، وكان دوما سر بسمتي وسعادتي
كنت نجمَه .. وكان هو ليلي الذي أضيء فيه
كان هو السماء بأسرها .. التى بدونها لا وجود لي
توقفت قليلا كي أكبح جيشًا من الدموع كاد يهزمني ....
أشكره ... حتى وإن لم يكن هو بيننا
اشكره ...، وأشكر أسرتي و كل من ساندني
أتممت كلماتي، ولكن لم ينتهِ ما كتبته
شكرا لكم جميعًا .....

تقريبا كنت أنا الوحيده في القاعة بلا بكاء، في البداية كان يبحث الجميع عن أبي
وسط الحاضرين ليروا من سعيد الحظ الذي تمتدحه ابنته وسط الجموع؛ وعندما اتضح الأمر، لم يمنعوا عبراتهم من جريانها.

رأيته شامخًا كعادته، كان يبتسم ابتسامة جمع فيها مزيجًا من مشاعرالفرح، والفخر

تركت مكاني على المنصة، تقدمنا تجاه بعضنا، قدم باقة من زهور الاستر (النجمة)"زهرة ترمز إلى الحب والصبر"

وقد شكلها من ألوانها الثلاثة -الأرجواني والوردي والبنفسجي-

و قد غمس بينها علبة صغيرة، تقدمت خالتي التي كانت تمسح دموعها وكذلك إخوتي

لم يعقبوا أبدًا على ملامحه الشبيهة بأبي؛ أكنت أنا الوحيدة التي أرى فيه ملامح أبي؟!

أو ربما استطعت أن أرى قلب أبي فيه؛ وليس ملامحه فحسب، عندما سألتني خالتي من يكون؟

هو الذي بادر بالرد:

- أنا آسف، لم أقدم نفسي

(دكتور) "مراد الامام" صديق نجمة في العمل

- صديق نجمة!! أهلًا بكِ ...

لم تستطع رنا أن تخفي دهشتها وأطلقت صيحة عبرت عنها قائلةً:

- تبدو الزهور جميلة جدًا، لم أرَ مثلها من قبل .. ما اسمها؟

- تسمى "النجمة" .. رأيتها ملائمة ومناسبة للاسم.

لقد مرت تلك الساعات التي كنت أظنها صعبة جدًّا

ولكن ظل أبي حائلًا دون ذلك، وكأن وجوده قد محا كثيرًا من الألم

فتحت العلبة التي غمسها بين باقة الزهر، وكانت تحمل مجسمين أحدهما لطائر أبيض امتزج بخطوط "بنية" وقد برزت عيناه اللتان يحملان الجمال في ضيها، والذي عكسته إضاءة المصباح، يمد جناحيه استعدادًا للتحليق، قد حمل تحت أجنحته ورقة ملفوفة، فتحتها، مكتوبًا فيها بحبرٍ أسود كلمات منمقة قد شكَّل حروفها:

"كل الطيور تهاجر، وتعود إلى أوطانها
أتمنى أن يجدني وطني، فقد وجدته"

والمجسم الآخر لنجمٍ ذي بريق لامع .. لمعت عيناي، فقد فهمت مُرَادَ "مُرادِ"، واتفق مُرادنا

"وربما قد وجدك وطنك أيضًا"

أسررت بها في نفسي وصمت ..، ولكن كانت عيناي تقول الكثير من الذي لا يمكنني البوح به.

حصادي المركز الأول في المجموع تراكميًا، قد أهلني للحصول على منحة لاستكمال الدراسة في كندا، كان أمرًا لم أكن أتوقعه ولكن على الرغم من كونها فرصة لايمكن التفريط فيها، كان خيار الرفض يحصد الأغلبية في رأيي، دون رأي إخوتي وخالتي،

و هل أستطيع أن أكون هناك وحدي؟

لم أتخيل أبدًا مستقبلي بدونهم، ولا أستطيع الذهاب مُدعية أنه مستقبلي، لم أرسمه لأظهر فيه بمفردي، فعلى الرغم من دعم إخوتي وخالتي لي وتشجيعي على تحقيق حلمي؛ لكن لا أستطيع أن أحققه، وأهدم أحلامهم أو أن أنكث بوعدي لأبي ... ماذا إذا كانوا بحاجة لي في غيابي؟.

لم يهدأ قلبي أويتوقف عقلي عن التفكير إلا عندما سمعت

قول رسول الله ﷺ:

$إنك لن تدع شيئًا لله ﷻ إلا بدلك الله به ما هو خير لك منه# [رواه أحمد].

حددت وجهتها أخيرًا!

وهذه المرة لم يجرؤ عقلها على إعادة التفكير في الأمر مجددًا

إنه برهان لا يحتاج إلى مجرد التفكير فيه، لم يصدق الجميع قراري، وأيقنوا أنني سأندم على تضييعي لتلك الفرصة، ولكن لم أتأثر،المهم أنني سعيدة بقراري وموقنة بهِ.

وذهبت إلى الجامعة ليتأكد رفضي، ولأقدم أوراق العمل -متدربة بالكلية-، بعدها

ذهبت إلى البحر لكي أخبر أبي بأنني قد حسمت أمري، وأشعر بالارتياح الشديد الآن، جلست على نفس المقعد الممتد وابتسمت لأمواج البحر التي تلاطم الشط،

وكأنها تصفق لي على شجاعتي ... وقراري ...

على حفظي للأمانة، اهتمامي بمستقبل إخوتي، ولكن قطع حديثي الصامت مع البحر صوته يناديني:

- "نجمة" ..

كان هو ... جلس على نفس المقعد، هذه المرة لم تفارق البسمة وجهي، كنت سعيدة لأن رؤيته تعني لي وجود أبي، لم أخبره إلى الآن بأنه يشبه أبي، حتى حين أنظر إليه فإنني أتأمل ملامح أبي التي اشتقت إليها كثيرا. ابتسم قائلًا:

"أما آن للطائر المهاجر أن يهديه نجمٌ من السماء؟".

الفصل التاسع

غيـاب

"الساعة الثامنة ونصف الساعة مساء"

كان "مراد"يقف أمام بوابة المستشفى النفسي في انتظار الطبيب "عادل" ليساعده على تخطي حارس الأمن، دون أن يملك إذنًا كتابيًا بالدخول، لم يكن عادل كعادته المرحة في مقابلته، بدا وجهه منزعجًا، وكانت عيناه يبثان القلق، أما عن قلبهِ؛ فيمكنك سماع صوت دقاته المتخبطة بسهولة

- "عادل" توقف قليلًا ...!

وقف فجأة فأصدر حذاؤه المُرتطم بالأرضِ صوتًا مزعجًا.

- ماذا حدث؟؟ لماذا تبدو منزعجًا هكذا؟!

- أنا آسف يا مراد، ولكن عليك أن ترى والدتك الآن.

- والدتي!!! ماذا أصابها؟ ... أخبرني ...

أخبرنى، ماذا بها؟؟

جذب قميصه وأخذ يهزه بعنف وهو يسأله ..

- اهدأ قليلًا، ورافقني رجاءً ..

أنزل يديه وقد نفرت شراييها، واحمرت عيناه، وتبع "عادل" الذي سلك طريقًا لم يسلكه من قبل ...

حتى وصل إلى المبنى المجاور الذي لم يلجه من قبل، صعد إلى الطابق الثالث، ودخل إلى غرفة "كاميرات" المراقبة، وبمجرد دخوله أشار إلى أحد العاملين الذي وجه الشاشة تجاههما، واختار مِلفًا بعناية من بين عدة مِلفات، وضغط زر تشغيل "الفيديو"، ظهرت والدته وهي تجلس على سريرها هادئة، لا تصدر أي حركة، وفى حركة مفاجئة ... التقطت غطاء رأسها وشنقت نفسها،لم يستغرق الأمر دقيقة كاملة، وكان الموت يثب نحوها بسرعة سبقت وصول الممرضات في محاولة لإنقاذها.

ضغط عادل زر إيقاف تشغيل "الفيديو" وهو يربت على ظهره في وهن وحُنُو .....

"غريب، كيف يكون الموت أهون من الافتراق في نظر البعض؟، أهذا؛ لأنه يقتل الأمل في مهدهِ، والافتراق يترك لكَ خيار الأمل متاحًا؛ فتتعذب في انتظاره".

وبينما دفنت نفسي بين حوائط ذلك المنزل الذي بات يحمل ذكريات مؤلمة عن قاطنيهِ؛ لم يبقَ فيه إلا أنا، لم أستطع أن أودع أيًا منهما كما ينبغي.

أصبحت جدرانه تطبق على أنفاسي، وتؤجج يومي، وتقطع سبيل النوم عن عيني؛

فلا سبيل إلا للألم والأرق الدائمين، زاوية صغيرة اعتدت رؤية والدتي تقرأ دفترها بها

قد جمعت بين ذكريات مبعثرة لطفولتي .. وذكرتني بكلماتها ذا يوم بعد وفاة أبي ...

"إنه سيأتي من يجعلني أتمسك بالحياة حتى من دونها".

لم أكن لأفهم معنى لكلماتها في هذا الوقت، وحتى الآن أرى إنها مجرد وهم يتركه الراحلون في جعبة الباقين، كأمل يتمسكون به من بعدهم ..

التقطت قلمًا، وأنشأت حديثًا طرفه الثاني كان موكلهُ ورقةً

أراها فيكِ نفس بسمتها الخجولة .. نفس روحها الطيبة .. نفس الدفء والراحة

الذين أجدهم في قربها، نفس زرقة عينيها ..، نفس حبها الشديد للبحر .. وجدتها فيكِ ووجدت نفسي منجذبًا كالأبله .. لقد عاود حديثه من جديد بعد أن سكت هنيهة ..

أتذكرين تلك المرة التي قابلتك فيها لأمنحكِ الكتاب الخاص بوالدك؟

رسمتكِ حينها ... رسمت بسمتكِ .. رحلت بعدها مهاجرًا كذلك الطائرالذي أهديته لكِ

أبحث عن علاج لنفسي التي لم تستطع تخطي الماضي، قررت أن أبحث عن سبب لكي أعود للحياة، لون عينيكِ الزرقاوين كلون البحر جعلت جروحي الغائرة تجد الضماد سريعًا، أعترف أن وجودي معكِ لحظة كألف ساعة مما قضيتها في علاجي، لقد احتفظت بصورتكِ أثناء علاجي؛لأنني أعلم أنها هي دواء جرحي الحقيقي ..

أعتذر قد أكون أطلت كلامي جدًّا، ولكن أمواج عينيكِ أغرقتني في الكلام، وشدتني إلى أعماق بعيدة، ومنجاتي فيها كانت بلساني الذي يخاطبكِ ...

أود ألّا تغرب الشمس، أتمنى لو يطول النهار أكثر لأقول لكِ كل ما أختزنه في قلبي

أتمنى لو يتوقف الزمن أمام عينيكِ لأقضي فيهما ألف عامٍ.

قد نفد حبر قلمه ونفدت سطور ورقته، ولن ينفد كلامه أبدًا، التقط الظرف ووضع فيه تلك الورقة بعد أن طواها، وأغلق الظرف وضمه إلى صدره، وقد وجد النعاس طريق عينيه بعد أن فقد طريقه إليها طويلًا.

وفي الصباح ...

تمكنت أشعة الشمس الساخنة من الانعكاس على وجهي، وداعبت عيني فأيقظتهما من حلم كانتا تخوضان جوانبه، تفقدت هاتفي؛ لأرى الساعة كانت الثامنة ونصف الساعة، لقد تأخرت عن العمل، بدون تردد وثبت من فوق الأريكة؛ لأستعد للنزول ... عشر دقائق كانت كافية لذلك، التقطت نظارتي الشمسية من فوق المكتب ورحلت سريعًا .. شهرٌ فقط هو المدة المتبقية لي في المستشفى النفسي، قبل أن أتسلم وظيفتي الجديدة -متدربة في أحد أقسام الأكاديمية-.

كانت الساعة التاسعة إلا خمس دقائق حينما كنت أجلس عند المكتب؛ لأُدقق في الملفات التي تركها شخص ما، حتى أنجزتها في الحادية عشرة وبضع دقائق ذاك الموعد الذي يمر فيه دكتور "عادل" ليأخذ الملفات، ويحتسي كوبًا من الشاي، وهو يتبادل الأحاديث مع بقية الموظفين في الغرفة:

- أستاذ"حسن" ..
- نعم ..
- ألن يمر الطبيب "عادل" ليأخذ الملفات؟
- لا أعرف، ..ولكنه تأخر بالفعل .. يمكنكِ أن تعطيه لمساعدتِه في مكتبها.
- حسنًا، إذن، ... سأذهب، الآن.

سلكت الطريق إلى مكتبها، ووصلت الغرفة وسألت عنها، ولكن أخبرتني إحدى زميلاتها التي كانت تشاركها الغرفة بأنها لم تأتي إلى العمل اليوم، فذهبت لمكتب الطبيب "عادل" لأضع الملفات هناك حتى يراها حين يأتي، ... وقفت تجاه المكتب فقد سمعت صوت أحدٍ بالداخل، يبدو أن الطبيب "عادل" بمكتبه، فطرقت الباب فسمح لى فى الدخول، وأشار للكرسي المقابل لمكتبه فجلست، كان مُمسكًا بهاتفهِ ينتظر إجابة أحد، كان الهاتف يرن بلا إجابة؛ حتى توقع هو أنه لن يجيب أحدًا، وفي النهاية يصدر صوتٌ من الجانب الآخر يحمل طابعًا حزين ..

- "مراد" يا هذا؟؟ لماذا لاتجيب على اتصالاتي؟؟
- آسف يا عادل، ولكن لم أكن في حالة تسمح لي فى إجابتك.
- أين أنت الآن؟؟
- وأين سأكون؟، في المنزل الكئيب، وحيد كالعادة.
- سأمرعليك بعد نصف ساعة.
- لا تمر ... فلن أخرج اليوم.
- كنت هكذا أمس، وكل يوم.
- لا داعى لكل هذه المحاولات يا عادل، سأخرج بمجرد استعدادي لذلك.
- ستنتهي مدة إجازتك غدًا،هل ستبقى في البيت؟!!

مراد!! ... مراد ..! لقدأغلق الخط.

ألقى بهاتفهِ على المكتب في عنفٍ قائلًا:

- "مراد الإمام" ... هذا المجنون سيقتل نفسه قريبًا على هذا الحال

اندفعت قائلة:

- "مرادالإمام"!... لكن ماذا حدث له؟

عقد حاجبيه وقد أظهر أمارات تعجب كثيرة ...

- هل تعرفين "مراد الإمام"؟!!

ترددت قليلًا في الإجابة، قبل أن أقول شيئًا ...

ولكنه وفّر الإجابه بقولهِ:

- لقد انتحرت والدته منذ أسبوعين هنا في المستشفى، .. ومن يومها وهو لا يغادر شقته، أخشى أن يزهق روحه هو أيضًا.

الفصل العاشر

النهاية

وصلنا إلى عتبة منزل قد وقفت أمامه سيارة تراكم عليها الغبار حتى لاتكاد تُميز أن لونها أسود وليست ترابية؛ دلف الطبيب "عادل" من المدخل وتبعته في ذلك حتى توقف تجاه الشقة التي تقع في الطابق الأرضي، ودق هو الجرسَ وانتظر دقائق ولم يتلقَ إجابة ...

ألصق أذنيه بالباب لينصت إلى أي صوت قد يصدر من حركة بالداخل، ولكنه تراجع مبهوتًا وقد تسربت إلى نفسه بعض المخاوف، في حين دلف إلى المدخل رجل قد خالط الشيب رأسه، تحدث بصوت متهدج قد أفزع الطبيب "عادل" الذي لم ينتبه إلى دخوله:

- ابتعدوا عن تلك الشقة الملعونة، فمن يدخلها؛ لايخرج منها بسلامٍ

تابع حديثه بعد أن أخفض صوته قليلًا، قائلًا:

- لقد انتحرت السيدة التي كانت تسكن هنا بعد أن أصابها الجنون ...

كان سيتابع حديثه .... ولكن باب الشقة قد أصدر صوتًا قويًا، وقد انفتح على مصراعيه

أفزع كل الواقفين، وفي عنف بالغ قال "مراد":

- أخبرتك أكثر من مرة أن تتوقف عن الهذيان بهذا الكلام، وإلا فسأريك الجنون كيف يكون ..

انصرف الرجل وقد أحدثت عصاته صوتًا قويًا، لإرتطامها بالأرض مرات عدة.

- "مراد" ...

- أخبرتك أني لا أريد التحدث معك ياعادل، رجاءً ارحل الآن ..

- وهل ستدع "الآنسة" نجمة ترحل أيضًا؟ لقد أتت للعزاء.

- "نجمة"... رددها بدهشة ...

فأظهرت نفسي تجاهه بعد أن كنت أقف بعيدًا حيث لايراني من في الداخل ..

سكت قليلًا وقد أطرق مفكرًا، ثم ابتعد عن مدخل الباب وأشار بيديه إلى الداخل ...

تقدم الطبيب "عادل" ثم لحقته بخطوات واثبة، تقدم هو الآخر ليطفىء عودًا من البخور يبدو أنه أشعله توًّا.

- ماهذه الرائحة يا مراد؟ أكنت تستدعي الأرواح أم ماذا؟

نظر له بنظرة مخيفة تماشت مع لحيته التي أطلقها ونظارته الداكنة، ولكنها لا تماشى ما قاله الطبيب"عادل" -محاولة لإضحاكه-، قائلا:

- الأرواح التي تفارقنا تذهب إلى عالم البرزخ، ولا يمكن لمخلوق أن يستدعيها من هناك ...

وكأنه قد ألجمه عن بقية الحديث، كتحذير بعدم المزاح هذه المرة.

الألوان القاتمة التي طليت بها حوائط المنزل، تجعلك تشيح بنظرك بعيدًا ... محاولة للإفلات من سيطرة الطاقة السلبية التى قد تبعثها في نفسك ....

بينما جلست على الأريكة في الجهة المقابلة، قعد مراد في الكرسي المجاور لكرسي الطبيب "عادل"، واستمر الصمت دقائق عدة وقعت فيها عيني على مظلة تشبه تمامًا تلك المظلة التي أعطاها لى أحد في المترو ذلك اليوم؛ لم تكن كالبقية، بل كانت متميزة قد تحمل نصف قلب وتلك مظلتي تحمل النصف الأخر،أدهشني القدر فقد كان هو -مراد- منذ البداية.

قطعت الصمت بجمل التعازي التي تلقاها وهو مايزال مثبتًا نظره على الأرض، وكزه صديقه برفق فانتبه وقد رفع رأسه، وأظهر ابتسامة باهتة لم يقوَ حتى على رسمها كاملة، مرت عشر دقائق وما زال الصمت هو المستحوذ الأكبر لتلك الدقائق، استأذنت ثم تقدمت نحو الباب بخطوات هادئة.

عرض الطبيب "عادل" أن يستدعي سيارة أجرة لتقلني إلى المنزل ولكن رفضت بقولي إنني أعرف الطريق جيدًا.

رافقني"مراد" إلى الباب وبعد أن اجتزته تقريبًا فكت حنجرته أخيرًا قيد صوته وقال:

- "آنسة" نجمة، شكرًا، على حضورك.

ثم أدخل يده في جيبه في حركة مفاجئة، وكأنه كان على وشْك أن ينسى،
ثم أخرج ظرفًا صغيرًا منه وأعطاه لي قائلًا: أتمنى أن تقرأيه.
أخذته وقطعت ما بقى من خطوات إلى المخرج في ارتباك شديد ...

تراقصت كلماته التي دونها، وكأنها موسيقى عذبة تخاطب قلبي،
تهللت أساريري وارتسمت ابتسامة لا يمكن إخفاؤها، وأنا أعيد قراءة السطور مرة ثانية ....
مرت الأيام وانقضت أربعة أسابيع، وهكذا انتهت رحلة عملي في المستشفى النفسي،
كنت أتابع أخبار "مراد" خلال تفاصيل طفيفة يحكيها الطبيب "عادل" وهو يحتسي الشاى برفقة الموظفين كل مرة، وقد انتقل إلى شقة جديدة في حي آخر يبتعد عن القديم .. لقد قرر أن يبدأ من جديد ... انتقل الطبيب "عادل" إلى مستشفى آخر بعد انتقالي ببضعة أيام.

كان يتحدث مع أحد أصدقائه عبر الهاتف، ليطلب منه خاتمًا خاصًا قد حفر عليه اسمها وقبل أن يذكر له الاسم انفجر إطار سيارته، ليفقد القدرة على التحكم بها
فارتطمت السيارة بشجرة ضخمة، ويندفع مراد عبر زجاج مقدمة السيارة، مخترقًا إياه، ليستقر هادئا بلا حَراك خارج السيارة، وقد نزفت رأسه وأماكن متفرقة من جسده بفعل شظايا الزجاج المتطايرة.

أما نجمة ستنام الليلة سعيدة وقد أخذت تتخيل نفسها برداء لامع وقد ارتقت

ابتسامتها لتزداد تألقًا حتى غطت في نوم عميق.

ولِمَ لا؟ فهي تعلم أن غدا ما كانت تنتظره منذ الكثير، فقد أخبرها أخيرًا أنها لن تنتظره مجددًا، وغدًا سيكون اللقاء.

لقد استيقظت على صوتٍ هاتفي يرن، كان المنبه الذي ضبطه على الساعة السابعة، بحثت في سجل الاتصال والرسائل ولكن كان فارغة، فتسربت لمحة حزن إلى عيني التي تتلقى الإجابة خائبة هذه المرة ...

كنت قد ارتديت سترة خريفية سوداء تماشت مع لون نظارتي الشمسية القاتمة؛ والأهم أنها تناسب ما كان يدور في عقلي وقلبي كليهما.

في ركن هادىء استقرت شجرة ضخمة وارفة الظلال أو كانت كذلك ... فالخريف قد حلّ وقد ودعت أوراق الأشجار بعضها بعضًا؛ لتتساقط مبعثرة على نحو فوضوى مبدع، يجدد في داخلي كل معاني الفراق، كان يوم عمل مرهق قد استدعى كل تفكيري، وحاز كل جهدي، فلم يدع هناك مجالًا للفتور أو الضعف، مضت الأيام التالية على وتيرة واحدة:

قضاء يوم عمل مرهق، ثم إن سنحت الفرصه أذهب إلى البحر،أجلس على نفس المقعد، أدقق النظر فى رسالته التى أعطاني إياها آخر مرة، أقرأها وأعيد قراءتها مرة تلو الأخرى.

وأنتظره ولكنه كل مرة لم يحضر.

مرَّ أسبوعان بدون أن يظهر، كيف يمكن أن يختفي بسهولة ويتركني هكذا؟!!

في إحدى الليالي كنت جالسة على سريري، محدقةً إلى سماء غرفتي

وأتابع النظر إلى هاتفي في انتظاره أن يتصل، وقد بلغ مني الغضب مبلغه، فزممت شفتي وأغلقت عيني بقوة، وقبضت على يدي بقوة أكثر، تمالكت نفسي ومنعتها من البكاء، ذهبت لأتوضأ،ومازالت أوتار قلبي تهتز بعنف وكأن الريح يعصف بها بقسوة شديدة.

مرَّ شهران .....

استيقظت على صوت العصافير التي كانت تسكن على الشجرة القريبة من شباكٍ ما

يبدو أن الفجر قد بزغ مُعلنًا يومًا جديدًا، خرجت من غرفتي لأجد خالتي قد مدت سجادة الصلاة، وشرعت في صلاة الفجر، تتمتم ببعض الآيات التي أسمع بعضها ولايدركني الآخر.

حاولت ألا أحدث صوتًا حتى لا أثيرانتباه خالتي، ودخلت لأتوضأ، وبدأت أصلي الفجر، صنعت كوبين من الشاي بالحليب، وانتظرتها لتقضي صلاتها في مستشرف المنزل،

قضت صلاتها، وجلست تكرر أذكارها، ثم أحدثتُ صوتًا خافتًا فانتبهت سريعًا لانتظارى

تقدمت نحوى بابتسامة راضية.

منذ شهرين ....

- من فضلِك أريد الوصول إلى غرفة "مراد الإمام" لقد جاء فى حادث اصطدام.

- راجعت بيانات حاسوبها ثم قالت: أول غرفة في الطابق الثاني.

دلف "خالد" -صديق مراد- الذي أوصاه بشراء خاتِم في آخر مكالمة قبل اصطدامه

كان "مراد" ممدًا على فراشه، مغمضًا عينيه، قد أحاط رأسه "شاش" أبيض و ضمادات عدة متفرقة قد ظهرت على وجههِ.

اقترب نحوه حتى صار تقريبًا تجاهه مباشرة، حينها فتح عينيه الدمويتين، وأخذ يتفحص المكان في دهشة، ثم وقعت عيناه على "خالد" الماثل تجاهه، ينظر إليه نظرة تشوبها الشفقة.

- كيف حالك الآن يا مراد؟

انتظر مراد بضع لحظات وكأنه ينازع صوته لينطلق:

- ماذا حدث؟؟

- لقد أصبت في حادث بسيارتك، ولكن لا تقلق، فأنت بخير الآن حتى إنه يمكنك الخروج اليوم، ثم أخرج علبة سوداء أنيقة، وفتحها حتى استقرت تجاه عيني"مراد" قائلًا:

- تفضل ماطلبته مني..

- عادت نظراته المريبة في الظهور مرة أخرى، ثم رفع عينيه حتى استقرت تجاه وجهي

- لمن هذا الخاتِم؟؟ وهل طلبته منك؟؟.....

قطع حديثه طرقات على الباب، تبعها دخول الطبيب ومساعده الذى تفقد حالة مراد، ثم طرح بعض الأسئلة عليه، وقد أدرك ماحدث له، ثم تحدث بجدية وقد نقل عينيه بيني ومراد:

يمكن أن يؤثر اصطدام رأسه على بعض الذكريات والأحداث القريبة بشكل مؤقت.

بادر خالد بسؤاله: متى سيتذكرها؟

- مع مرور الوقت، ثم استأذن بالخروج.

-"نجمة"

- نعم يا خالتي.

- لقد وصلتك هذه الرسالة اليوم.

فتحت الظرف وقرأت الورقة المطوية بداخله

"لقد تم قبولك في فريق المصممين الشباب"

أعدت قراءتها مرة أخرى بصوتٍ مسموع، وأنا لا أكاد أصدق ما قرأته

- هل هذا هوالعمل الذي حدثتيني عنه من قبل؟؟
- نعم إنه هو، لا أصدق أنهم قد قبلوا توظيفي بالفعل ..
- مبارك عليكِ يانجمة، عليكِ إخبار إخوتك بذلك عندما يعودون، متى ستسافرين ؟
- بعد ستة أيام تقريبًا، هكذا أتذكر ما كان مكتوبًا في العقد، سأراجعه وأخبرك ..

"خالد" هل أخبرتُك باسم صاحبة الخاتم ..؟
قالها مراد في حالة من اليأس.
- لا، لم تفعل للأسف.
- أين هاتفي؟ بالتأكيد، كنت قد سجلت اسمها على هاتفي.
- ولكن هاتفك تحطم في الحادث.
- ألا يوجد طريقة لمعرفة من هي؟
- الطريقة الوحيدة يا مراد تكمن فيك وحدك.

لقد انقضى الأسبوع سريعًا تارة وبطيئًا تارة أخرى، لقد شعرت بالحزن في عيني خالتي وإخوتي ...
ولكنهم حاولوا إخفاءه قدر المستطاع، كنت قد رفضت المنحة من قبل لأجل بقائي برفقتهم ...
ولكن لم أستطع المواصلة على هذا النحو، كنت أحتاج إلى الابتعاد قليلًا والعمل على صفاء ذهني مجددًا ...
فالأمر أشبه بفقدان أبي مرتين، وكلاهما كان بدون وداع (ولكن الوداع يمكنه أن يجعل الأمر صعبًا فالجميع يتخطاه ويبتعد، فلماذا أطلب ما رفضه الجميع؟).

رأيت فيه كل شيء في أبي ولكنه كان كاذبًا ... لقد خذلني .. من أين له بكل تلك القسوة ..؟ هل كان يخدعني طوال هذه المدة؟!.

كنت أعرف أن أمر ابتعادى عنهم سيكون صعبًا، ولكنه أقل إيلامًا من بقائي دون أن أحرر نفسي ...

عندما سنحت لحظة المغادرة لي تخطيت الوداع ، ما كنت أعاتب القدر أنه لم يمنحه لي من قبل ... تخطيته ...، هكذا فحسب،لا بأس بدموع خفية ولكن لمَ نزيد الأمر سوءًا تجاه بعضنا؟؟

مرافقة أحد لي إلى المطار أمر مزعج، لن يزيد الأمر إلا سوءًا؛ لذلك تخطيته.

لقد وصلت أخيرًا إلى المطار، كان هناك من ينتظرني ... فتاة تحمل لافتة كُتِب عليها اسمي، كانت رقيقة، جميلة، تدعي"ليزا" بسمتها متواضعة، تمنحك الهدوء حين تنظر إليها.

تقدمت نحوها وتعرفت إليها -حدثتها عني بإيجاز- وانطلقنا معًا بإحدى السيارات التي أقلتنا إلى السكن ...

أسندت رأسي إلى نافذة السيارة، ورحت أتابع في صمت ما لمسته عيني من جمال الطرقات ومعالم الطريق الجذابة، طوال رحلتي لم أتكلم مع "ليزا" بسوى بضع كلمات قليلة، كنت منشغلة برؤية ما جذب عيني من أماكن بشغف.

وصلنا أخيرًا إلى مبنى كبير تألف من طوابق عدة، استخدمنا المصعد إلى الطابق الخامس، أدخلت حقائبي الشقة التي أعطتني المفتاح الخاص بها، كانت شقة عادية لاتختلف عن شقتنا، فقط، لا تحمل أي ذكرى من الماضي.

من النافذة التي تقع في زاوية غرفتي أطلت المساحات الخضراء

البهيجة، أما أصيص الزرع الذي قد ظهر فيه شرخ من المنتصف، فقد حوى بعض الزهرات الوردية الصغيرة التي لازالت تنمو، فضلًا عن شرخ الأصيص "البني"؛فإن الزهر كان يطلق في نفسك البهجة، تجولت في الشقة سريعًا، وكانت "ليزا" ما تزال واقفة تتابع تحركي في خفة، تنحنحت لتجذب انتباهي واستأذنت للذهاب، وتركت رقمها الذي دونته على ورقة فوق الطاولة الصغيرة الموجودة في الغرفة، لم تكن تسكن في هذا المبنى بل في آخر يبعد عن هذا، ربما، ببضع دقائق

سيرًا على الأقدام، سكن جسدي أخيرًا على كرسي يمكنك خلاله الرؤية بوضوح خلال النافذة الزجاجية.

وجدت هاتفي، أخيرًا، بعد أن أفرغت محتويات حقيبتي، وأجريت اتصالًا أطمئن فيه خالتي وإخوتي بوصولي سالمة، وأخبرتهم بأني سأفرغ حقائبي وأنام قليلًا.

لم أنفذ الجزء الأول، وهو إفراغ حقائبي فقط، واستلقيت على فراشي الجديد، وغبت في نومٍ عميق لم أحظَ به منذ ليالٍ عدة، نهضت على إثر الطرقات العنيفة المتتالية المتتابعة على الباب كانت الغرفة حلكاء الظلام؛ فقد غابت الشمس التي غفوت بصحبتها، اتجهت نحو الباب لأفتحه، كانت "ليزا" ... علامات القلق اجتاحت وجهها، تمسك بهاتفها الذي رفعته بقرب أذنها في انتظار إجابة شخص ما. استغرقت دقيقتين حتى عاد وجهها إلى لونه الطبيعي، وقد زالت بعض علامات القلق التي كانت تجتاح وجهها منذ قليل، فقد استمرت بالاتصال بهاتفي الذي جعلتُ مستوى صوته منخفضًا للغاية، فلم أستطع فعلًا سماعه، وكانت على وشْك الاتصال بأحد العمال لتحطيم الباب.

التقطت أنفاسها وهدأت قليلًا ثم دعتني لاكتشاف المكان، وتناول الطعام في أحد الأماكن القريبة

دخلت إلى غرفتي للاستعداد وبعدها، انطلقنا نتنقل بين الطرق والمعالم.

ليزا كانت تتحدث العربية على نحو ضعيف، فوالدتها كانت من أصول عربية فعلى الرغمن من كلماتها المبعثرة تُشعرك بأنك ما زلت في وطنك،لا تلتهمك روح الغربة القاتلة، تعمل مصورة "فوتوغرافية" للتصميمات التي ينتجها الفريق، استغرقت شهرًا تقريبًا في حفظ الطرقات، وطريقة التعامل

وأصبح التعود أمرًا مُفعلًا وواقعيًا.

خلال ذلك الشهر كان الأطباء النفسيون يجتهدون محاولة لتذكير "مراد" بالذكريات التي رفض عقله استرجاعها، والتى كانت تشكل عبئا نفسيًا عليه فتخلص منها بأن يتناساها.

نصحه الأطباء بالذهاب إلى مكان يخلو من الضوضاء، ويستطيع أن يمنح ذهنه الصفاء

فانتقل إلى منزل المزرعة الذي كان ملكًا لوالدته، واعتادوا أن يقضوا الإجازات الصيفية هناك في طفولته، وانتقل هو طبيبًا إلى أحد المستشفيات هناك.

اليوم الخامس والعشرون من فبراير ...

ما تزال برودة الهواء تنازع النسمات الدفيئة في مشهد متقلب يحسمه الربيع في استهلالةٍ مهيبةٍ يقدم فيها أزهارًا قد اختلفت ألوانها، وأنواعها عن الأشجار المتسلقة التي كست حوائط المنزل من الخارج ...

ارتشف مراد آخر قطرة من القهوة من فنجان أبيض ناصع، زينته زهور وردية رقيقة

لا تعرف شيئًا عن مرارة تلك القهوة ولونها الأدكن.

تفقد صندوق البريد كعادته كل صباح في انتظار أن يغلقه هذه المرة كغيرها، بلا رسائل

ولكن هذه المرة تحديدًا التقطت يداه رسالة قد حملت اسمه، فض الرسالة وقرأ ما فيها كان مضمونها ... أن خال والدتي الذي عاش حياته كلها في "ألمانيا" ولم أره سوى مرة واحدة يوم وفاة والدي يطلب زيارتي.

أرسل لي تذكرة الطائرة وحجزها بعد ثمانٍ وأربعين ساعة، طوى "مراد" الرسالة ووضعها بجانب فنجان القهوة، وقرر الموافقة فورًا، فليس لديه ما يربطه بهذا المكان، وعسى أن يجد شغفًا في مكان آخر بعيد عن هنا؛ فلن يخسر تلك الفرصة التي يمنحها له القدر مرة ثانية. بعد أن رفضت والدته ذلك من قبل، أخرج ورقة وطواها مرات عدة من جيب بنطاله، ونظر إليها وقد زفر مطولًا .. إذن، لنستعد لنرحل معًا؛ فأنتِ كل ما تبقى لي من الماضي.

انتظرته سيارة خاصة في المطار لتنقله إلى بيت خال والدته، .. عبرت السيارة البوابة الحديد الضخمة إلى مدخل واسع قد ازدان جانباه بطبيعة باهرة، دلف من الباب الذي فتحه أحد العاملين في البيت، ذلك البهو الواسع وتلك السقوف العالية لم يكن بيتًا عاديًا بل إنه قصر بلا شك ...

تبعت الرجل الذي أشارلي بذلك حتى وصل إلى غرفة خال والدتي، المستسلم على الفراش، الهزيل جسده، الواهن وجهه الذي برزت عظامه ... تقدمت نحوه وأنا أحاول موازنة هذه الهيئة الواقعة تجاهي بتلك التي رأيتها من قبل، أرسل إلي بسمة خافتة رأيتها في عينيه، أما ابتسامة شفتيه، فلم يكن لها مجال.

كان يقف إلى جوار سريره رجل يرتدي بِدلة سوداء دكناء ومعها منديلٌ أسود.

مد يديه لي بورقة قد تكدست فيها الكلمات، قرأت سطورًا متفرقة منها وكانت تحمل في نهايتها توقيعه، ولم يبقَ إلا توقيعي، ينقل كل أملاكه إلى حسابي، بشرط أن أتم مشروع مستشفى الأطفال الذي لم يكتمل بعد، وحينها يمكنني التصرف كيفما أشاء، تقدم نحوي بقلمٍ، فوقعت على هذا العقد ...

ثم سمح لي فى الخروج حتى أستريح من عناء السفر.

أشرفت على استكمال المشروع، مُقيمًا في ذلك القصر الواسع، مُستغلًا تلك المدة في قضاء بعض الدراسات العالقة، وعلى الرغم من وجود الكثير من العاملين في ذلك القصر؛ فإننى لم أستطع أن أشعر لحظة بالأنس والتعود.

تبقت ثلاثة أشهر على نهاية عقد العمل في فريق المصممين الشباب، المشروع الأول تكفل بتصميم المتاجر الكبيرة والمشهورة .. كان الأمر شاقًا في البداية للخوض في سوق العمل، وكيفية الوصول إلى المرحلة التي يمكنك إقناعهم بما يحمله معنى تصميمك ويتوافق مع آرأهم، لقد أصبحت ماهرة في ذلك المجال، واكتملت المشاريع الثلاثة بنفس النظام، المشروع الأخير كان تصميمًا داخليًا لجناح في مستشفى أطفال جارٍ إنشاؤها؛ ووقع الاختيار عليّ من ضمن الفريق الذي تم تشكيله.

حين تنطفئ النجوم

التصميم لابد أن يضم طابعًا مبهجًا يحمل لمسات بإمكانها تخفيف الآلام عن أولئك الأطفال الذين يتقلبون بين أحضان المرض، لا بأس بمشاهدة أفلام الكرتون، ودراسة تصاميمها؛ لتحقق جوًا لا يمكن وصفه بملفَّق، بل جعله حقيقة تعيش فيهم ويعيشونها، كان الكل يكتب أولًا عن أجمل ذكريات طفولته؛ ليتم جمع الأفكار واختيار أفضلها، وتشكيل مزيج يمكن رسمه في لوحة جدارية تزين المقدمة ...

طفولتي ... التي قضيتها في عالم قد صنعه أبي كان هو كل شيء فيه .. أعتذر، لنتجاوز هذا الجانب فكل مافيه مفقود.

كنت أعمل في الطابق الرابع الذي لم يتم الانتهاء منه بعد؛ أما الطوابق السفلية؛ فقد بدأت بالفعل باستقبال المرضى، لم أكن ألتقي بالكثير من العاملين من الأطباء أو حتى المرضى

إلا في الطابق الأول الذي تقع فيه "الكافيتريا" حيث اعتدت تناول الكعك مع القهوة بصحبة الفريق.

وانقضت الساعات لتصبح أيامًا وانقضت الأشهر الثلاثة إلا خمسة أيام كانت هي المتبقية على افتتاح الجناح الذي صممه الفريق؛ كُنَّ هنَّ الأصعب؛ فاللمسات الأخيرة دومًا تحتاج إلى دقة عالية تزيد الأمر إرهاقًا .

وجاء اليوم المنشود أخيرًا ...

قد تأنقت على غير عادتي منذ مدة، ارتديت سترة أرجوانية زادتني تألقًا،تخليت عن نظارتي الشمسية هذه المرة، أريد أن أتخلى عنها، كما قررت أخيرًا التخلي عن كل ما له عَلاقة بالماضي.

البسمة التي ارتسمت على وجهي هذا اليوم كنت قد بحثت عنها طويلًا خلال الأشهر الماضية.

أيقظتها من سباتها العميق، لأجعلها بسمة متدفقة من السعادة وليست من عمق الألم، وقف الفريق على الجانب المقابل للشريط الذي سيفتتح ذلك الجناح بمجرد قصه، استطعت تخطي باقات الأزهار التي جمعت أزهارًا قريبة إلى قلبي ... إلى مشهد تجمع الأطباء والمستثمرون في انتظار مديرهم ليقص الشريط.

اندفعت الكاميرات في حركة مفاجئة نحو الباب، لالتقاط الصور التذكارية لحضور المدير

لم أستطع رؤية وجهه؛ فقد أخفته الأجساد المتلاحمة في سباق لتحظى بالأسبقية ،

لحظات وقد تفرق الجميع لتظهر قامته الممشوقة وطوله اليافع وشعره الأسود ..

أمعنت النظر في وجهه بعد أن نزع نظارته الشمسية الدكناء، وقد ظهر أثر جرح حديث في مقدمة وجهه واستقر في جبهته البيضاء فشوشها، تراجعت للخلف وقد اعتصرت قلبي برودة ثلجية مفاجئة ...

سرت في كل جسدي حتى استقرت في قلبي مجددًا، حاولت أن أنطق بكل قوتي وكأن الكلمات قد احتجزت في حنجرتي .. إنه هو ...!!!

وكيف يجرؤعلى الظهور بعد غياب لا يمكن تفسيره؟!، أسندت جسدي إلى أحد الحوائط متفادية من انهياري وهل هناك ما يمكن أن يَدُكّ مشاعري دَكًّا كظهوره هنا؟!!

مضت سبعة أشهر، بل سبعة أشهر ونصف الشهر منذ أن اختفى، قرأت كل ليلة رسالته وانتظرته صباحًا، تمنيت لو استطعت تحطيم جناحي الطائرالذي أهداه إلي ليسقط في جعبة الوطن من جديد ...

كنت أمس قد فرغت من دفن الماضي ولأول مرة لم أقرأ رسالته. دقّ قلبي مجددًا وأنا أودع الألم الذي احتجزني فيه الماضي وقيدني بقيود ذكرياته؛ لقد تركت وطني وأهلي لأضمد جرحًا قد كان هو السبب في نزفه، احتبست العبرات في عيني فقد أقسمت ألا أريقها أبدًا.

خرجت من القاعة أجر جسدي الذي لم يكن في حالة أفضل من روحي الممزقة؛ اختليت بنفسي على مقعد فارغ قد انزوى عن صخب الاحتفال؛ وابتعد أمتار عدة عن القاعة وبكيت نفسي .. وبكيت أبي مجددًا.

انسحب "مراد" بين الحضور بصعوبة بالغة، كلفته إلقاء التحية والسلام على أكثر من ثلاثين مدعوًا، هو مجرد ممثل عن هذا المشروع ولا يعرف عن وجودها هنا شيئًا.

استقرت قدمه فى موضع صادفته فيه نسمات الربيع الحانية، وداعبته أشعة الشمس التي ألقتها بدلال كبقعة ضوء، انحنى ليلتقط زهرة أرجوانية، قد جذبته

من بين تلك الزهور المختلفة، قربها من أنفه ليستنشق عطرها واثقًا بأنه يعرف اسم تلك الزهرة؛ ولكن خانته ذاكرته.

أخرج هاتفه من جيبه ليبحث عن اسمها، فسقطت الورقة التي طواها أكثر من مرة

فانحنى لالتقاطها وهو يزيل بيديه ما علق من الغبار على سطحها ..

- جيد، إنكِ سقطتِ الآن، كان يجب أن أشاركِ ذلك المنظر البديع ...

التقط صورة للزهرة الأرجوانية ليبحث عن اسمها، والتقطت أذنه صوتًا فالتفت حوله مُتفحصًا المكان، فانجذبت عينه لفتاة تجلس على المقعد الذي انزوى في ركن بعيد ترتدى سترة بنفس لون الزهرة التي يحملها، تقدم نحوها بخطى بطيئة؛ حتى لم تكن تفصله عنها سوى خطوة أو ربما نصفها.

ارتفع صوت إشعار هاتفه، ليتلقي نتيجة بحثه عن اسم الزهرة.

وارتفع صوته وهو يصرخ ... نعم، إنها نجمة ...!!!

أحيت نجمة وجهها الذي دفنته بين راحتيها لتستقر عيناها الغارقتان فى الدموع ... على "مراد" ... الذي نطق باسمها توًا .. انتبه مراد لما فعله، فبادلها نظرة طويلة وقد رفع الورقة التى تحمل صورة فتاته التي لم يذكر اسمها، وقد صاحبته في كل لحظات وحدته وضعفه، لتتطابق مع صورة الفتاة الماثلة تجاهه، وقد ملأت عينيها الدموع

ونطق بصوتٍ عال.

- "لقد هُديتُ إلى ضالتى"

نجمة!!

قالها بنبرة من اكتشف توًا سرًا خطيرًا.

ابتسمت له والدموع تنهمر من عينيها:

- مراد ...

(لم يكن "مراد" يشبه والد "نجمة" ... ولم تكن نجمة تشبه والدة مراد؛ بل كانا هم من يصنعان الشبه؛ لأنهما يحتاجان إليهما).

تم بحمد الله